نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب

تأليف لسان الدين بن الخطيب

دراسة تحليلية نقدية

بقلم
الدكتورة/ سوسن محمد بلتاجى
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بالإسكندرية -جامعة الأزهر

✡)(ef&

مبحث تمهيدي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،

فإن للأندلس مكانة فى قلوب المسلمين وعقولهم، فقد ارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً منذ دخلوها على يد طارق بن زياد عام٩٢هـ ولعل هذا الارتباط راجع إلى الفترة التى قضاها المسلمون بالأندلس، والتى تجاوزت ثمانية قرون من الزمان، وفى تلك الفترة شَادَ العرب المسلمون في ربوعها حضارة ورقياً، وأقاموا صروحاً شامخة من ألوان المعرفة المختلفة، ومنها الأدب العربى الذى يعد أثراً من آثار البيئة الأندلسية، ومع أن الأدب الأندلسي يعد امتداداً للأدب العربى فى المشرق الذى هو المنبع والأصل، إلا أنه أضاف إلينا جديداً وتطوراً ملحوظاً فى اللغة والأدب يثلج صدورنا كلما طالعِْناه، وقد كان المقرى محقاً حينما قال عن الأندلس:"لا تستوفى بعبارة، ومجارى فضلها لا يشق غباره، وأنّ َ ِى تُجارى وهى الحائزة قصب السبق فى أقطار الشرق والغرب" ؟ِ! [1]

وقد شهد القطر الأندلسى على مر عصوره ازدهاراً كبيراً فى شتى العلوم والفنون التى من جملتها الأدب، حيث برز فيه جملة من الأدباء والشعراء فاقوا غيرهم نظماً ونثراً، وحق لمن أراد أن يقف على هذه الحقيقة أن يطالع كتاب "نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، للمقرى التلمسانى حيث عطر كتابه بذكر جملة من الشخصيات الأدبية ممن أظلتهم دوحة الأندلس حتى قيل "كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وكلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب من لم يقرأه فليس بأديب"؛ وذلك لاشتمال الكتاب على جملة من الآثار الأدبية الرفيعة،

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب /للمقرى/ت د/إحسان عباس – دار صادر بيروت/١٣٨٨/٥/٩٢.

سواء منها المنظوم أو المنثور، ولاشتماله كذلك على جملة وافرة من الشخصيات الأدبية الأندلسية التى عز أن يجود الزمان بمثلها.

وقد شغلت قضية الأدب الأندلسى بال كثير من الأدباء والكتاب على مر العصور وذلك لانصراف الناس وخصوصاً أهل المغرب منهم إلى أدب أهل المشرق نابذين وراء ظهورهم تراثهم الأدبى الزاخر مما دفع كثيرا من الأدباء والكتاب إلى التأليف لمعالجة هذه القضية ومن هؤلاء ابن بسام الذى ألف كتابه " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة الذى يبين فيه تفوق أهل الأندلس ونبوغهم فى هذا اللون من الفنون حيث يقول: " فإن ثمرة هذا الأدب العالى الرتب رسالة تنثر وترسل، وأبيات تنظم وتفصل.....،وما زال فى أفقنا الأندلس القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين، قوم هم طيب مكاسر وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق.....،إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتاده.....، فغاظني منهم ذلك، وأخذتُ فى نفسى بجمع ما وجدتُ من حسنات دهرى، وتتبع محاسن بلدي وعصري غيْرة لهذا الأفق الغريب أن تبدو بدوره أهلَّه....." (١)

وواضح من كلام ابن بسام أنه أراد بوضع الذخيرة أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم، وروعة إنتاجهم وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق، ومن الواضح أن ابن بسام بكتابه هذا أراد أن يعارض أديب المشرق أبا منصور الثعالبي صاحب "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر".

_ وكان المقّرى التلمسانى من المغاربه الذين أحسوا مدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسى والمغربى "وكان ذلك الإهمال فى القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية أما فى عصر المقرى فلضعف الثقافة عامه، وحسبك أن تجد لسان الدين ابن

(١) الزخيرة فى محاسن أهل الجزيرة /ابن بسام الشنترينى/ت. جامعة القاهرة /ط/لجنة التأليف والترجمة/ج١/٤٠٣.

الخطيب وهو مَن هو فى المغرب والأندلس محتاجاً إلى من يعرف المشارقة به ويحدثهم عن أخباره"[١]

وقد جُعل القرن الثامن الهجرى فى الأندلس وخصوصاً فى مملكة غرناطة بالنسبة لجانب الفكر والأدب عصر النضج والازدهار وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى فى أعظم عصوره مثل ابن خاتمة الأنصارى وابن جزى، والوزير ابن زمرك.....وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصر وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم.

ومن ثم وجدت رغبة ملحة فى مطالعة ولو جزء قليل يكون بمثابة نافذة تطلعنى على جانب من الأدب الأندلسى لأشهر أدباء القرن الثامن "ابن الخطيب" الذى احتل مكانة عظيمة فى تاريخ الأندلس بعامة، ومملكة غرناطة بخاصة والذى قال عن نفسه:"على الرغم من انشغالى الشديد بالوزارة ولكنى أكتب الكتاب فى أربعين يوماً"[٢]

ومن جانب آخر فإن لتراث ابن الخطيب الأدبى قيمة أدبية ولغوية عظمى، فإنه يعد مرآة تعكس بجلاء الحياة السياسية والاجتماعية خلال نصف قرن من الزمان، فهو صورة للصراع الإسلامي الرومي، والصراع الداخلي بين سكان الأندلس أنفسهم، وصورة للصراع المرينى نفسه، وهو أيضاً صورة للحياة المترفة من قصور وحدائق ومتنزهات وقد بدا جزء من هذا في رحلة ابن الخطيب الذى سماها " نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب" وهو كتاب يمثل مع غيره أدب الرحلات عند ابن الخطيب، فماذا يعنى هذا اللون من الأدب؟ وما القيمة المرجوة من دراسته؟

أسطر فيما يلى إلمامة قصيرة عن أدب الرحلات وثمرة دراسته: فهو لون من النثر الأدبي يستمد موضوعاته من الرحلات فيصور فيه الكاتب ما جرى له من

(١) الذخيرة لابن بسام /١٦٧.

(٢) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام/لسان الدين بن الخطيب/ت. ليفى بروفنسال/بيروت١٩٥٦/٩٧.

أحداث وما صادفه من أمور فى أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان ويكتب بلغة خاصة.

ويندرج تحت اسم أدب الرحلات مجموعة كبيرة من الكتابات المختلفة فى نواحٍ متعددة من حيث أسلوب الكاتب، ومنهج الكتابة، والغرض منها والجمهور الذى يتوجه إليه لكن هذه الكتابات تشترك كلها فى أنها تصف رحلة يقوم بها شخص ما إلى مكان ما لسبب ما.

وقد نشط أدب الرحلات أساساً على أيدى الجغرافيين والمستكشفين الذين اهتموا بتسجيل كل ما تقع عليه عيونهم أو يصل إلى آذانهم حتى لو كان خارج نطاق المعقول ويدخل فى باب الخرافة.

وقد عرف العرب أدب الرحلات منذ القدم، وكانت عنايتهم به عظيمة فى سائر العصور حتى أصبح فى العصر الحديث شكلاً فنياً داخلاً فى الأدب وليس دراسة تاريخية وجغرافية حية كما كان من قبل، وقد شهد تطوراً فى موضوعه والهدف منه واللغة التى يكتب بها. (١)

أما عن قيمة هذا اللون من الأدب:

فهو أغزر مناجم الأدب حيث تختلط فيه معظم العلوم الإنسانية من جعرافيا وتاريخ إلى أدب وقصة وطرح أدبى ينبئ عن خلفيات واهتمامات الكاتب الثقافية.

وكتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ لأن الكاتب يستقى المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة ومسلية، وفى الوقت ذاته لا يحقق أدب الرحلات للمتلقى فقط المتعة الذهنية والفائدة المعرفية فحسب لكنه أيضاً يوسع دائرة اهتمامه بالأقطار التى يرحل إليها عبر القراءة، كما يتلمس جوانب إنسانية جديرة، يستوحيها من تصرفات الناس وعادات وتقاليد الشعوب، وقد يقتبس منها المفيد مما لا يتنافى مع

(١) ينظر: الرحلات. د/شوقي ضيف /دار المعارف. القاهرة /ط ١٩٨٧/٤،ص١٥.

الثوابت القارة فى مجتمعه، كذلك يُعدّ أدب الرحلات نافذة يطل منها القارئ على العالم وَيعْبُر من خلالها إلى آفاق واسعة وجديدة.

وعلى الرغم من أن العصر الحالى يُعدّ بحق عصر الرحلة والسفر؛ نظراً للإمكانيات والتسهيلات الهائلة التى حدثت بحيث أصبح السفر جزءاً من الحياة العادية للرجل العادى فقد أصبحت الرحلة الحالية بعكس ما كانت عليه الأوضاع فى الماضى، فالرحالة الأوائل كانوا أدباء ومؤرخين وجغرافيين ومكتشفين لذلك جاءت كتاباتهم سجلاً وافياً ودقيقاً وعميقاً عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التى زاروها، ومظاهر سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية فكتابات هؤلاء تكشف عن درجة عالية من القدرة على الملاحظة الدقيقة والتحليل، تلك الملامح التي نحاول تلمسها فى الرحلة التي بين أيدينا وهى لابن الخطيب الذى عُدِّ أعظم شخصية ظهرت فى الأندلس فى القرن الثامن الهجرى فمن هو لسان الدين ابن الخطيب؟

المبحث الأول

إطلالة على حياة ابن الخطيب وآثاره الأدبية

التعريف بابن الخطيب وآثاره الأدبية:

هو الوزير العلامة المتحلى بأجمل الشمائل وأفضل المناقب المتميز فى الأندلس بأرفع المراقى وأعلى المراتب، علم الأعلام ورئيس أرباب السيوف والأقلام.

محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى اللوشى الأصل، الغرناطى الأندلسى أبوعبد الله الشهير بلسان الدين بن الخطيب وزير مؤرخ أديب نبيل.

ولد بلوشة عام٧١٣هـ، ١٣١٣م ونشأ بغرناطة التى انتقلت إليها أسرته،وفيها تلقى دراسته،فقد عُني أبوه بتربيته ، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية ، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أشهر علمائها في زمنه ،فعاش لسان الدين حياة حافلة بالعلم والنشاط السياسي والفكري،وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح السلطان أبا الحجاج يوسف[١] ،فألحقه بدواوينه ثم ولاه رياسة ديوان الكتاب، وتوفي السلطان فخلفه ابنه الغني[٢] بالله فزادت حظوة ابن الخطيب عنده ورفعه إلى مرتبة الوزارة ، وانفرد

(١) أبو الحجاج " ٧١٨-٧٥٥ " هو: يوسف بن إسماعيل بن فرج الأنصاري الخزرجى سابع ملوك بني نصر في الأندلس ، بويع ساعة مقتل أخيه محمد ، كان في صباه كثير الصمت والسكون فلم يمارس شيئا من أعمال الدولة إلا بعد أن توفرت له الحنكة والتجارب فقام بأعباء الملك ، وباشر بعض الحروب بنفسه ، وبينما كان في المسجد العظيم بحمراء غرناطة ساجدا في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر هجم عليه مجهول فطعنه بسكين ومات على أثر ذلك. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: الحافظ ابن حجر: ت. محمد عبد المعيد ضان.نشر.مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٢، ١٩٧٢ ،٦/ ٢٢١، ٢٢٢ ، الأعلام للزركلي: دار العلم للملايين،٨/ ٢١٧.

(٢) الغني بالله هو: محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج أمير المسلمين بعد أبيه بالأندلس كان معدودا في نبلاء الملوك صيانة وعزا، وشهامة وجمالا يضرب به المثل في الشجاعة المقتحمة حد التهور ، يحب الأدب ويرتاح إلى الشعر ، وقد برز لمباشرة الميادين وارتياد المطارد حتى قتل على يد الروم. الإحاطة في أخبار غرناطة: ط. دار المعارف، ١/ ١٣٤,١٣٧.

بالحل والعقد فترة ، كان يلقب بذى الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له " ذو العمرين" لاشتغاله بالتصنيف فى ليله، وبتدبير المملكة فى نهاره. (١)

آثاره الأدبية:

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره وشعرائه، بل هو أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق، وقد بلغ فى النظم، كما بلغ النثر، مرتبة التفوق التى لا يدانيه فيها سوى القليل. (٢)

شعر ابن الخطيب: وصفه معاصره الأمير أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر "بأنه شاعر الدنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض"(٣)

وقد وصفه ابن خلدون بأنه: " شاعر الأندلس والمغرب فى عصره، وقد بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما، وأعظم مايتميز به شعر ابن الخطيب هو وفرة التنوع والافتنان فى الموضوعات والمعانى ويرجع ذلك إلى توقد قريحته، وسعة أفقه وإلى حياته المتنوعة الفياضة بمختلف الأحداث والمحن وتنوعت مواضيع شعره فنظم فى شؤون السياسة، وفى المديح والغزل والزهد والتصوف، والمدائح النبوية، وهو يُبدى فى قصائده براعة فى ابتكار المعانى، وفى صوغ الخيال، وفى اختيار اللفظ المشرق، وبرع كذلك فى الزجل.....،وكان من أئمة الموشحات الأندلسية،ومنها موشحته الذائعة الصيت التى مطلعها:

جادك الغيث إذ الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلماً فى الكرى أوخلسة المختلس(٤)

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٧٦/٥.
(٢) الأعلام للزركلى/دار العلم للملايين/ج٦/ص٢٣٥/أرشيف ملتقى أهل الحيث/٩٣٢٩/١.
(٣) تاريخ ابن خلدون/ت./د.إحسان عباس/دار صادر بيروت/٧٠٩/٧.
(٤) تاريخ ابن خلدون: ٥٨٦/١.

▪ **النثر:** برز ابن الخطيب بالأخص فى ضرب من النثر الوزارى والسياسى، وقد ترك لنا فى هذا الميدان تراثاً ضخماً، من المراسيم السلطانية التى صدرت أيام توليه الوزارة، عن سلاطين غرناطة، وكذلك الرسائل الدبلوسية التى كان يكتبها على لسان سلطانه إلى ملوك إسبانيا النصرانية، أو سلاطين المغرب، أو سلاطين مصر فيما يتحدث عن علائق المودة والتحالف، أو يصف بعض الحوادث التاريخية، أو يطلق صيحة الجهاد للدفاع عن الأندلس إلى غير ذلك من الشؤون والأحداث التى ملأت حياته السياسية سواء فى المغرب أو الأندلس.

كذلك ترك لنا عدداً كبيراً من الرسائل الأدبية، ورسائل المودة والصداقة، التى كان يتبادلها مع شيوخه وأقرانه، وأصدقائه وأكابر معاصريه، وتمتاز رسائل ابن الخطيب بالأسلوب الرصين المشرق، واللفظ الجزل المختار. (١)

وبهذا يبقى ابن الخطيب كاتب الأندلس الأول، وأديبها الأوحد فى القرن الثامن دون منازع، بما خلف لنا من تراث زاخر، يشمل المنظوم والمنثور، وبما تفتقت عنه قريحته من جميل المنظوم ورائع المنثور وهو القائل عن نفسه:"سلمان انتسابى، وبالمعارف الأدبية اكتسابى، وإلى العلوم قد نشأ ارتياحى، وفى حلبة أرباب النظر مغداى ومراحى، على نهاية من ترف النشأة وغر البدأة"(٢) فهل تجود الأيام فيما يستقبل من الزمان بمثل هذا الأديب البارع ؟!

لقد ترك لنا ابن الخطيب تراثاً حافلاً من طب وسياسة، وتصوف وغيرها، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط، فقد اغترف من كل بحرٍ مما جعل الباحثين يعدونه خزانة للعلم والأدب، فقد كان عالماً وفقيهاً وشاعراً وكاتباً وإن لم يتفوق فى شئ تفوقه فى الأدب، حتى كان من أئمته وقد استحق ما قاله عنه المقرى "هو الوزير الشهير الطائر الصيت، المثل المضروب فى الكتابة

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون /٣٣٣/٧ ، نفح الطيب ٢١٩/٦.
(٢) ينظر: أوصاف الناس فى التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات: لسان الدين ابن الخطيب/ ت محمد كمال شبانه /منشورات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى١٣٤/١٩٧٧، الاحاطة فى أخبار غرناطة/لسان الدين بن الخطيب ٧٦/٢.

والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها.....،ثم عقب وقال:"تصانيف ابن الخطيب فأيٍ ةَ راحة ونعيم عيش"(١)

ومن مؤلفاته على سبيل المثال:(٢)

الإحاطة فى أخبار غرناطة، اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة.

نفاضة الجراب فى علامة الاغتراب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

روضة التعريف بالحب الشريف، خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف. فن العلاج فى صنعة الطب،رقم الحلل في نظم الدول ، معيار الخبار...

محنته ومقتله :

لسان الدين ابن الخطيب علاَّمة وبحر غزير من بحور العلم والمعرفة، لمع نجمه وذاع صيته، وللأسف لم يجد حظاً كافياً بالعيش الهنيئ والاستقرار، بل جوبه مجابهة شديدة من خصوم وحساد، فكادوا له وكفروه على أفكاره ومعتقداته وأوقعوا بينه وبين حكام زمانه ونجحوا في الإساءة إليه فحوكم وحكم عليه بالإعدام، وحرق كثيرٌ من كتبه ومؤلفاته.

وقد عظمت مكانة ابن الخطيب واستعمل على مخازن الطعام في وزارة الغني بالله،حتى كثرت السعايات، ووشى ضده الوشاة، وتنكر له من كان هو سبباً فى تقريبهم ورفع جاههم، وسيطر الحسد على بعض النفوس، ولم يكن هو غافلاً عما جرى من حوله،حيث شعر بدسائس كثيرة من حوله فخشى على نفسه مغبة ذلك وقضى فى هذا الجو فترة من الزمن وهو فريسة للخوف والحذر نهبة للقلق النفسى والتردد، وكان كلما خلا إلى نفسه جعل يخاطبها قائلاً: "يا مشئومة! أما تشعرين لما نزل بكِ ٍ، حَمَلْتِ هذا الكَلَّ على ضعفك، وأوسعت هذا الشغب فى فكرك وتعرضتِ لأن تسخطى الطالب الممنوع بخيبته، وتسخطى المعطى

(١) نفح الطيب : ١٠١/٢.
(٢) هدية العارفين/ لإسماعيل البغدادي / دار الفكر بيروت/٣٥/٢ .

بما يرى إنك قد منعته الزيادة فى عطيته، وتسخطى الأجنبى بالقبول على عدوه،....."[1]

وقد ألحَّ ابن الخطيب على سلطانه فى السماح له بزيارة مكة وفى كل مرة تبوء محاولته بالفشل وهذه الرغبة عند ابن الخطيب تنم عن تشبث الغريق بحبل النجاة، وتنفيس عن الحيرة الدنيوية فى ظل الأهواء المتنازعة والسياسات المنقسمة، وكما هو معروف من تاريخ الأندلسيين أنه كلما اشتدت وطأة الحياة السياسية عليهم أصبح نزوعهم إلى الدين أقوى، وحنينهم إلى الحجاز أشد ،تعلقاً منهم بخيط من خيوط الرجاء.

ففي غرة جمادى الآخرة من سنة ٧٧٣هـ حاز لسان الدين ابن الخطيب إلى "سبته" تاركاً أعباء الوزارة بالأندلس مفارقاً المال والولد والجاه فاراً إلى ما يرجوه من حياة مطمئنة فى ظل السلطان المرينى أبى فارس عبد العزيز، وقد كانت هجرته وليدة أزمة نفسية طالت به معاناتها إلى أن وضح له المنهج واستبان الطريق، وقد كشف هو عن هذه الأزمة فى عهد مبكر حين كتب إلى الشيخ أبى عبد الله بن مرزوق رسالة يصور فيها مكاره الحياة السياسية ومكايدها.

وجاءت اللحظة الحاسمة التى وجد فيها أن الفرار أمر محتوم وهى لحظة عبَّر عنها ابن الخطيب بالعجز حين قال للغنى بالله: "ونختم لكم هذه الغزارة بالحلف الأكيد أنى ما تركتُ لكم وجه نصيحة فى دين ولا دنيا إلا وقد وفيتها لكم ولا فارقتكم إلا عن عجز"[2]

ولما لم يفلح ابن الخطيب في الإلحاح على سلطانه بالسفر إلى مكة، احتال لنفسه واستأذن الغنى بالله فى تفقد الثغور وسار إليها فى لمة من فرسانه فلما حاذى جبل الفتح مال إليه، وكان قد أخذ من السلطان المرينى، عهداً بالإقامة فى

(١) الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة : لسان الدين ابن الخطيب ت.د.إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان ط ١ ،١٦٩٣، ١ /٤.
(٢) الكتيبة الكامنة :١/٥.

كنفه وبتمكينه من الحج، فتلقاه وأحسن وفادته، وكتب إلى سلطان الأندلس فى استقدام أولاد ابن الخطيب وأهله فأرسلهم إليه.

إلا أن السعاية ضده لم تفتر كى يأمن أعداؤه عودته إلى الأندلس، ومال السلطان إلى رأى الوشاة فقام " النباهى "[١] بإصدار فتوى توجب حرق كتب لسان الدين لأنها تنطوى على الزندقة فحرقت وصٍُودرت أملاكه واستحثوا السلطان المرينى على تسليمه لإجراء العقوبة عليه بسبب الإلحاد فأبَى وقال لرسل ابن الأحمر: "هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه"[٢]

ولما كانت الأيام مسالمة لابن الخطيب لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه، فلما قلبت الأيام له ظهر مجنها وعاملته بمنعها بعد منحها أكثر أعداؤه فى شأنه الكلام ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام، وسلوك مذهب الفلاسفة فى الاعتقاد، وغير ذلك، وكان الذي تولى كبر محنته وقتله تلميذه أبو عبد الله ابن زمرك. [٣]

(١) النباهي هو: أبو الحسن عي بن محمد بن عبد الله النباهي " ٧١٣– ٧٧٦" قاضي الجماعة بغرناطة ، وكان من المشهورين بالفصاحة و البلاغة ، والعلم والمعرفة، والتفنن في العلوم معقولها ومنقولها، كان من علية الفقهاء ونبهائهم ، ولي القضاء بمالقة نحو أربع سنين ينظر:تاريخ قضاة الأندلس : أبو الحسن النباهي ت. لجنة إحياء التراث العربي ط٥ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،لبنان ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣، ١/١١٢.

(٢) ينظر: الكتيبة الكامنة:٥/١، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٣/٢: ٧.

(٣) نفح الطيب/١١٩/٥. ابن زمرك: هو أبو عبدالله بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين فى غرناطة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها وهى أسرة متواضعة حياتها، يقول عنه ابن الأحمر:إنه نشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن سريعا وأخذ يختلف مثل أقرانه إلى حلقات الشيوخ،وكان أستاذه فى الشعر والأدب ابن الخطيب وقد ألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتباً حسناً، ولما خلع الغنى بالله ونفى إلى المغرب التحق به وزيره ابن الخطيب ولحقه ابن زمرك وعاد مع السلطان إلى الأندلس، وكثيراً ما كان يردد لأستاذه = =ابن الخطيب رسائل وقصائد شكر وحمد، ثم حاك مؤامرة لأستاذه ليحتل مكانه فى الوزارة، والتحق ابن الخطيب بالمغرب فلحقه ابن زمرك على رأس لجنة لمحاكمته وقد عنف ابن زمرك أستاذه

وقد نقل لنا ابن خلدون تعليق ابن الخطيب على هذا الحال بقوله: "وكنتِ ُ لغروري بالزمان وثقتي منه بالأمان أظن أن لا سبيل للدهر علىَّ، ولا تطرق له إلىَّ، وإن مفارقتى من الأندلس إنما هى مفارقة أب لولد، وقلب لخلد، وإن عقارى الموروث والمكتسب جارى مجرى الوقف الذى لا يُبدل، وصريح الشريعة الذى لا يتأول، وإن فوائده تلحق بى حيث كنتُ من المعمور..... "[1]

ولما توفى السلطان المرينى عبدا لعزيز دُك الجبل العاصم من الطوفان والممسك للأرض عن الرجفان فانتقل ابن الخطيب من (تلمسان) [2] إلى(فاس) [3] واستكثر من شراء الضياع وتأنق فى بناء المساكن حتى تقلد الحكم أبوالعباس المستنصر وقد ساعده فى ذلك "الغنى بالله" صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها:

تسليمه ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر وأرسل الغنى بالله وزيره ابن زمرك إلى (فاس) فعقد بها مجلس الشورى وأحضر ابن الخطيب فوجهت إليه تهمة

متهماً إياه بالزندقة ثم حكم عليه بالقتل ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاماً متوالية، أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة، القائم بالصلح بين الملوك بالعدوتين ولما توفى الغنى بالله، خلفه ابنه يوسف فسجن ابن زمرك ثم أخرجه وكذلك فعل أخوه محمد، ثم سرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به، وينزل ابن زمرك فى شعره وموشحاته منزلاً علياً من شعراء الأندلس، فهو آخر شعراء الأندلس، فهو آخر شعرائها المبدعين كما قال د/شوقى ضيف. ينظر:االكتيبة الكامنة :٢٨٢/جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس /ابن القاضى /ط فارس /١٨٤. تاريخ الأدب العربى/د. شوقى ضيف/٢٠٧.

(١) تاريخ ابن خلدون/٧/٣٤٠.

(٢) تلمسان: مدينة عظيمة قديمة بالمغرب آثار للأول مما يدل على أنها كانت مملكة لأمم سالفة، وهى فى سفح جبل أكثره شجر الجوز،س وهى كثيرة الخصب والرخاء كثيرة الخيرات والنعيم، وينسب إليها عدد من العلماء والمتصوفة منهم المقرى التلمسانى صاحب نفح الطيب.ينظر: الروض المعطار فى خبر الأقطار/ محمد بن عبد المنعم الحميرى/ ت.احسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة– بيروت /ط٢/١٩٨٠/١/١٣٥

(٣) فاس: مدينة كبيرة مشهورة وهى قاعدة المغرب تقع على ضفاف نهر فاس، وهى ثالثة كبريات المدن المغربية وهى مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر كبير يسمى وادى فاس، وبين أهل المدينتين فتن ومصاولات ويسكن حولها قبائل من البربر لكنهم يتكلمون العربية وقد أسسها إدريس الفاطمى عام١٩٣، وهى الآن نهاية الجمال فى البناء والإصلاح وهى أكثر بلاد المغرب ثماراً وخيراً، وتشتهر بأنها مركزٌ دينيٌّ وثقافيٌّ فى المغرب. ينظر: الروض المعطار: ١/٤٣٤/٤٣٥،و: آثارالبلاد وأخبار العباد/ القزوينى:١/٣٩.

الزندقة ،وسلوك مذهب الفلاسفة وأفتى بعض الفقهاء بقتله فأعيد إلى السجن ودس له رئيس الشورى "سليمان بن داوود"[١] بعض الأوغاد فدخلوا عليه السجن ليلاً وخنقوه ودفن فى مقبرة باب المحروق بفاس ثم أصبح من الغد على شأفة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه نار فاحترق شعره واسود بشره وأعيد إلى حفرته، وكان فى ذلك انتهاء محنته، وقد عجب الناس مما جاء به سليمان بن داوود الذى كان من ألد أعداء ابن الخطيب، وقد عظم النكير عليه وعلى قومه وأهل دولته. [٢]

وكان ابن الخطيب أيام محنته بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكى نفسه ومما قاله فى ذلك: [٣]

بعـــدنا وإن جاورتنـــا البيـــوت وجئنـــا بـــوعظ ونحـــن صـــموت

وأنفســـــنا ســـــكنت دفعـــــة كجهـــر الصـــلاة تـــلاه القنـــوت

وكنـــا عظامـــاً فصـــرنا عظامـــا وكنـــا نقـــوت فهـــا نحـــن قـــوت

وكنـــا شمـــوس سمـــاء العـــلا غـــربن فناحـــت علينـــا البيـــوت

وكـــم ســـيق للقـــبر فى خرقـــة فـــتى ملئـــت مـــن كســـاه التخـــوت

فقـــل للعـــدا ذهـــب ابـــن الخطيـــب وفـــات ومـــن ذا الـــذى لا يفـــوت

وهكـذا ذهـب الكاتـب والشـاعر الكبيـر والمفكـر العبقـرى ضـحية الجهالـة والتعصـب، والأحقـاد السياسـية،عن عمـر يناهز ثلاثـة وسـتين عاماً بعد أن سـجل

(١) سليمان بن داوود: لم أقف على ترجمته.

(٢) معجم المؤلفين: دار احياء التراث العربى ،بيروت،٢١٦/٢.وينظر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة،٣/٢.

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب:الحنبلى/ت. عبدالقادر الأرنؤوط محمود الأرنؤوط دار ابن كثير دمشق/١٤٠٦هـ ،٢٤٤/٦. نفح الطيب:١١٢/٥، تاريخ ابن خلدون٧:/٧٠٩.

لنفسه صفحات مشرقة فى مجالات الحياة المختلفة، والتى مازلنا نقتبس من معينها حتى يومنا هذا.

وصدق من قال: "إن ابن الخطيب جنة أدب تجرى تحتها أنهار المعارف فآتت أكلها ضعفين، ولكن تنفست عليه السياسة ببخار سام فخنقتة، وشبَّت نار الحسد فى القلوب القاسية فأحرقته"(١)

رحلات ابن الخطيب:

لابن الخطيب رحلات بديعة فى بلدان الأندلس والمغرب وأول هذه الرحلات رحلته مع أميره أبى الحجاج يوسف الأول فى تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته وقد سمى ابن الخطيب رحلته "**خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف**" وقد سار موكب أبى الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقى من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فإلبيرة، ويعود الموكب من طريق آخر ماراً بثغر المرية على البحر المتوسط، وكانت زيارات الأمير لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة، إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية فكل من فيها حاملو سلاح.

وله رحلة ثانية سماها "**معيار الاختبار فى ذكر الأحوال والديار**" وصف فيها أربعاً وثلاثين مدينة من مدن إمارة غرناطة، وبعض مدن المغرب الأقصى يصور فى تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافى وكل ما بها من صور الحياة مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ.(٢)

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث:٨٩٥٨/١، مجلة المنار : ٥٣٦/٢٢.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات د. شوقى ضيف/ دار المعارف،القاهرة ،ط ٣، ص٥٣٠ ،٥٣١.

وله رحلة طويلة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه وسماها "**نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب**" وهى الرحلة محل الدراسة وعلى وجه الدقة الجزء الثانى منها وهو ما تبقى منها بعد سقوط ثلاثة منها من يد الزمن. وفيما يلى بعون الله سأعرض هذه الرحلة وقيمتها الفنية.

المبحث الثاني

نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب
عرض وتوصيف

المبحث الثانى: بين يدي الرسالة

هذه الرسالة يمثل أشهر رحلات ابن الخطيب وأضخمها تقع فى الأصل فى أربعة أسفار ضخمة، لم يصلنا سوى الجزء الثانى منها فى نسخة تحتفظ بها مكتبة الاسكوريال فى (٣١٨) صفحة من الحجم الكبير، وقد ذكرها ابن الخطيب فى كتابه (اللمحة البدرية) ويبدو أن باقى الأجزاء قد ضاعت بِ ُعَيْد مقتله، أو كان لقتله سبب فى خوف الناس من إظهارها.

قال الأمير ابن الأحمر: "ونفاضة الجراب فى أربعة أسفار، وهو من أحسن تآليفه، ولم أزل أكثر البحث فى التاريخ عنها فلم أقف على عين ولا أثر إلا عدة أوراق متفرقة، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيتُ بعضها"(١)

قصة الكتاب: هذا الكتاب ألفه لسان الدين ابن الخطيب فى أواخر أيامة ولذا جاءت تسميته بهذا الاسم وقد ألفه بالمغرب بعد انصرافه عن الأندلس فيصف فيها الرحلة التى قام بها فى ربوع المغرب الأقصى خلال فترة منفاه فى صحبة سلطان غرناطة المخلوع "الغنى بالله" ابن الأحمر الذى تولى الحكم بعد مقتل أبيه سنة٧٥٥هـ، والذي كان له أخ من أبيه اسمه إسماعيل فجعله الغنى بالله فى بعض القصور من حمراء غرناطه احتفاظاً به حتى خرج الغنى إلى بعض متنزهاته خارج القصبة ، فتسوَّر جماعة من شيعة إسماعيل المحبوس القصبة ليلاً وأخرجوه من محبسه، ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه، فلما سمع الغنى قرع الطبول فى جوف الليل استكشف الخبر، فعلم بما تم عليه من خلفه وتولية أخيه ،فركب فرسه وخاض الليل إلى وادي آش، وقد عمد شيعة إسماعيل الثائر إلى الوزير ابن الخطيب فأودعوه السجن حتى طلب سلطان المغرب "أبو سالم

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:٢/٧٣.

المرينى" [١]تخلية سبيله فأجابوه إلى ذلك وقدم الغنى بالله ووزيره فى السادس من محرم عام٧٦١، فأجل السلطان قدومها، وأحسن وفادتهما. [٢]

وقد أتى ابن الخطيب فى هذا الكتاب على تفصيل هذه الأحداث، ولكنه ابتدأ الجزء الثانى الذى بين أيدينا بخبر صعوده جبل "هنتاته"[٣] حيث يصف أحوال أهله وعاداتهم، ومنها يتوجه إلى "أغمات"[٤] فيزور قبر ابن عباد[٥] ثم يعود إلى "سلا"[١]

---

(١) هو إبراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن يكنى أبا سالم وكان رجل حسن الشكل، حصيف العقل، ثابت الجأش، معروف الأمانة والصدق، ولد سنة ٧٣٥هـ وبويع فى = =منتصف شعبان عام٧٦٠ وخلع ليلاً فى ذى القعدة سنة ٧٦٢ وقتل بعد جهاد طويل بغدر الخبيث المؤتمن على دار الملك عمر بن عبد الله بن على فى الحادى والعشرين من نفس الشهر والعام وله ثمانية وعشرين سنة. وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر وأربعة أيام ينظر: الإحاطة: ٦٢/١.النفحة النسرية : ١٣/١.

(٢) ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى/أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى/ت. جعفر الناصرى، محمد الناصرى/ دار الكتاب، الدار البيضاء ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ٨/٤.

(٣) هنتاته:بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر: قبيلة من قبائل المصامدة من البربر بجبال درن المتاخمة لمراكش وهى قبيلة واسعة كبيرة.ينظر: صبح الأعشى فى صناعة الانشا: القلقشندى، دار الفكر دمشق/ ط١/١٩٨٧/ت.د. يوسف على الطويل

(٤) هى: مدينة صغيرة بأرض المغرب الأقصى تقع جنوبى شرقى مدينة مراكش، تقع في ذيل جبل كثير الأشجار والثمار والأعشاب وهى بلد خصب فيه مرعى ومزارع فى كل سهل وجبل، ونهرها يقسم البلد وعليه أرحية كثيرة تدور صيفاً، وفى الشتاء يجمد الماء ويجوز عليه الناس والدواب وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثر ولا أوفر حظاً ولا خصباً منها، وقد اندثرت بعد ذلك ولم يبق منها سوى بعض الأطلال.ينظر: معجم البلدان:ياقوت الحموى ، دار الفكر بيروت ،٢٢٥/١،عجائب البلدان/سراج الدين بن الوردى ،٩/١.

(٥) هو: محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمى صاحب اشبيلية وقرطبة وما حولهما، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزما،وضبطاً للأمور، تولى اشبيلية بعد وفاة أبيه وامتلك كثيراً من مدن الأندلس فاتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية وأصبح محط الرحال يقصده العلماء والشعراء ولم يزل فى صفاء ودعة حتى سنة٤٧٨هـ، حين استولى الروم على طليطلة وردوا ضريبة المعتمد فاستنجد بملوك الأندلس فكانت واقعة الزلاقة التى انهزم فيها الروم أشد هزيمة، ثم وقعت فتن كثيرة فى اشبيلية انتهت بحصار المعتمد من جيش يوسف بن

ماراً بمراكش وآسفى[٢] ودكالة[٣] وأزمور[٤] ثم ذكر سيرة أبى سالم المرينى وما جرى له من انقلاب وزيره عليه، هذا الوزير الذى استطاع أن يستخدم "الغنى بالله" للعمل على تقويض عرش السلطان أبى سالم بالرغم من كل الحفاوة التى لقيها عنده، وفى هذا المنفى توفيت زوجة ابن الخطيب وقد زين قبرها بقصيدة فى رثائها، كذلك يطالعنا فى فصول الرحلة رسائل مهمة مما كاتب به ابن الخطيب أعيان عصره مثل ابن خلدون، وابن بطوطة إلى غير ذلك من الموضوعات التى جعلت هذا الكتاب بمثابة مذكرات شخصية للمؤلف عن تلك المدة التى قضاها لاجئا عند أبى سالم المرينى، وهذا الكتاب أحد ثمانية كتب ألفها ابن الخطيب فى منفاه فى مدينة "سلا" فى قرية تسمى "شالة".

تاشفين ففزع الناس وتفرقت عن المعتمد الجموع وقتل ولداه وأسرهو = =عام٤٨٤ وحمل مقيداً مع أهله على سفينة وأمر بإرساله إلى أغمات، وبقى بها ولم يجد ما يكفيه لمدة أربعة أعوام حتى مات. ينظر: وفيات الأعيان فى أبناء الزمان /لابن خلكان ت.محمد محيى الدين عبد الحميد/ ط. النهضة القاهرة /٣٢/٥.،إنباء الغمر بأنباء العمر/للمحافظ ابن حجر /دار الكتب العلمية بيروت/١٤٠/٣. الوافى بالوفيات/ صلاح الدين الصفدى،٣٧٢/١.

(١) سلا: سلا الحديثة على ضفة البحر، منيعة من جانبه، وهى مدينة حسنة فى أرض رمل لأهلها سعة أموال، ونمو أحوال، والطعام بها كثير، رخيص وبها كروم، وغلات، وبساتين وحدائق ومزارع، أما شالة القديمة فهى الآن خراب بها بقايا بنيان قائم وهياكل ويتصل بخرابها، عمارات متصلة وزروع لأهل سلا الحديثة. ينظر: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق: لأبى عبد الله محمد الإدريسي ، ط، ليدن ١٨٦٦م،٧٢/١.

(٢) آسفى: بفتح الهمزة ومدها وكسر السين المهملة، مدينة عظيمة من أعمال مراكش على جون من البحر داخل فى البر فى مستوٍ من الأرض، وأرضها كثيرة الحجر، وليس بها ماء إلا من المطر، وماؤها النبع غير عذب، وبساتينها تسقى على الدواليب. صبح الأعشى فى صناعة الإنشا: القلقشندى، ١٦٤/٥.

(٣) دكالة: بفتح الدال وتشديد الكاف، بلد بالمغرب يسكنه البربر. شذرات الذهب ٥ / ٤٣١.

(٤) أزمور: بفتح الهمزه والزاى المعجمة وتشديد الميم، ثم واو وراء مهملة فى الآخر: مدينة بين ثغور المغرب الأقصى، وتقع شمال مدينة أصيلا على ميلين من البحر أكثر سكانها صناهجة. صبح الأعشى /١٦٧/٥.

أيام لسان الدين ابن الخطيب من خلال فصول الرحلة:

فى الحقيقة أن لسان الدين لم يكن غريباً عن بلاد المغرب، بل كثيراً ما نراه سفيراً ورسولاً بين سلطانه "الغنى بالله" وبين سلاطين دولة المغرب لاسيما بنى مرين، ولكنه فى زياراته لم تتهيأ له الفرصة لأن يجوب ربوع تلك البلاد التى كثيراً ما وطأتها قدماه وحرم من التنقل فى أرجائها، لذا نراه يحمل شوقاً دفيناً ورغبة عارمة، بسبب انشغاله بالوزارة وأعمال السياسة حتى قدر الله هذا النفى، ولذا فنحن لا نستطيع القول بأن هذه الرحلة كانت مقصودة فى هذا التوقيت، أو أنه أعدَّ لها العدة كما هو معهود فى تاريخ الرحلات، بل حمله القدر إلى تلك الأرض ليقضى فيها ثلاث سنوات، تصدى فيها لوصف الطبيعة وجمالها حيثما حل، كما صوَّر جانباً من نمط الحياة الاجتماعية عند كل من ينزل بهم.

_ أخباره بجبل هنتاته:

ابتدأ ابن الخطيب أحداث هذا الجزء بصعوده هذا الجبل، وقد أفصح عن شوقه الجارف منذ زمن بعيد لزيارة صاحب هنتاته عامر بن محمد الهنتاتى[1] المشهود له برعى الجوار، وشد عروة الوفاء ولعل ما عرف به هذا الرجل يمثل أقوى بواعث الوجهة وأخلص مقاصد الرحلة كما صوَّر ذلك ابن الخطيب فى قوله: "لم يكن همى أبقاك الله مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، إذ الشمل جميع والزمن كله ربيع، والدهر مطيع سميع، إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلما حُمَّ الواقع

(١) عامر بن محمد الهنتاتى: هو الرئيس الشهير أبو ثابت ، كبير جبل درن والبلاد المراكشية، مجير السلطان أبي الحسن من ابنه أبي العنان ، بلغ الغاية في الرياسة والاعتزاز على الدولة ، وطول الاستبداد بمراكش ، وكان قد حصلس في مدة رياسته على ثروة عظيمة ، وجاه كبير وكان له معتصم من الجبل حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: ٤/ ٥٠، ٥٣.

وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع..... قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفس السفر بسببك فألفيته خفيفاً"(١)

تقول لى الأظعان والشوق فى الحشا له الحكم يمضى بين ناه وآمر

إذا جبل التوحيد أصبح فارغاً فَخَيِّمْ قرير العين فى دار عامر

وَزُرْ تربها المعصوم إن مزارها هو الحج يمضى نحوه كل ضامر

فلما توجه ابن الخطيب إلى الجبل فى كنف أصحابه محفوفاً ببرهم صوَّر لنا بدقة مشاهداته ومطالعاته حين استقبل السهل وشاهد الآثار، وتخطى المعاهد وهو فى خطواته ينشق النسيم البليل القريب العهد بماء الثلج وعنصر البرد، حتى درج الجبل من السفح الذى التف به شجر الحور والطَرْفاء(٢)، وشجر الخلاف(٣)، والدردار(٤)، حتى ارتقى الجبل فى صحبة عبدالعزيز الهنتاتى، وهنا نتسائل هل ياترى هو جبل قفر غير مأهول على المعهود من أخبار الجبال؟!

---

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب:ت.د.أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨، ١/١.

(٢) الحور: ضرب من شجر تسوى منه السهام ، ويزرع حول الجداول لخشبه، المعجم الوسيط ، ت. مجمع اللغة العربية ، نشر. دار الدعوة ،٢/ ٦٤٧.

الطرفاء: جنس من النبات منه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاوية ومنه الأثل، ويقولون هو شجر برى لاثمر له وهو من أحسن أشجار البادية ورقه مفتول غير منبسط. ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/نظام الدين النيسابورى/دار الكتب العلمية /بيروت /لبنان /ت. الشيخ زكريا عميران /ط"١" ١٤١٦هـ/١٩٩٦م/٥/٤٩٠، القاموس المحيط للفيروزبادى/١/١٣٤٢.

(٣) شجر الخلاف: الصفصاف وواحده بالهاء، كتاب العين /الخليل بن أحمد الفراهيدى/دار ومكتبة الهلال، ت د. مهدى المخزومى، د. إبراهيم السامرائى/٧/٨٩.

(٤) الدردار: هى شجرة يشبه ورقها ورق اللوز، وثمرتها يقال لها لسان العصافير، وهو عراجين متفرقة يشبه أوراق الزيتون إلا أنه أصغر منه فى جوف كل خرنوبة لُب كأنه = =لسان

كلا، فمن أعلى هذا الطود العظيم يصور لنا ابن الخطيب صورة ناطقة عن الحياة المترفة، والعيش الرغد فى كنف هذا الجبل الذي حوى من مظاهر النعيم ما خلت منه الكثير من القصور "وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه المستندة إلى سفح الطود وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين أيدينا من المضارب كل سامى العماد، بعيد الطُّنُب[1]، سوى القامه' بديع النقش والصنعة ظاهر الجدة، مصون عن البذلة..... ولم يكد يقر القرار ولا تنزع الحفاف، حتى غمر من الطعام البحر، وطمأ الموج ووقع البَهْت[2]، وأمِل الطَّحْو[3]، مابين قصاع الشيزى أفعمها الثرد، وهيل بها السمن، وتراكبت عليها سمان الحملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولى القوة....." [4]

ويلاحظ على نقل ابن الخطيب وتصويراته الإحاطة والشمول لكل دقائق وجنبات الشئ الموصوف فنراه يُسهب فى رسم صوره ملونة لسفح الجبل ثم السهل

العصفور خارجه أحمر، وداخله أبيض، طعمه حريف مع الشئ من المرارة، ولذا يقال إنه شجر له تمر باهى نافع من وجع الخاصرة.تاج العروس من جواهر القاموس/ المرتضى الزبيدى /ت. مجموعة من المحققين/دار الهداية/١١٤/٣٦، وينظر: المعتمد فى الأدوية للتركمانى ٦٥/٢.

(١) الطُّنُب: الأصونة ويقال هو حبل الخباء والجمع أطناب وهو أيضاً عرق الشجر، وعصب الجسد.المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير/ أحمد بن محمد المقرى الفيومى/ المكتبة العلمية /٥٣/٧. المعجم الوسيط ٥٦٧/٢.

(٢) البَهْت: بهت الرجل تحير ودهش وانقطعت حجته لشئ رآه أو سمعه، والبَهَت: بفتح الباء والهاء مصدر "بهت" إذا دهش. ينظر: اسفار الفصيح للهروى/ ت. أحمد بن سعيد قشاش/ الناشر. عمادة البحث العلمى بالجامعة الإسلامية ١٤٢٠هـ،٩٦ ، وينظر: إكمال الأعلام بثليث الكلام/ محمد بن عبد الله الجيانى/ ت. سعد بن حمدان الغامدى /جامعة أم القرى /١٤٠٤هـ ١٩٤٨م.٧٦/١.

(٣) الطَّحْو: كالدحو: بمعنى البسط ٹ ڈ ژ گ گ گ ں ژ /مقاييس اللغة/ أبى الحسين أحمد بن فارس/ ت. عبد السلام محمد هارون/ الناشر اتحاد الكتاب العرب/ ١٤٢٣هـ ٣٤٨/٣/٢٠٠٢.

(٤) نفاضة الجراب: ٢/١.

الممهد المحاط بشعاب الجبل العصم، ثم وصف من لقيه وقابله من الرجال، فهل يا ترى هذا الإلمام بمشاهد العمران، وكذلك آثار الخراب لكل قدم خطاها ابن الخطيب يرجع إلى حساب الزمن فتكون دقته هذه مرتبطة بطول الفترة التى قضاها فى هذا المكان؟

فى الحقيقة: أننا إذا تخيلنا كيف جاب لسان الدين هذه البقعة من سفحها لأعلاها وجدناه قد سار فى موكب مهيب مُعَّد يتطلب سيراً خاصاً حتى يصل إلى أمير المكان "عبد العزيز الهنتاتى"[1] فيرجع الإلمام فى وصف هذا المكان إلى إبداع الفنان، و" كاميرا " المبدع التى حملت القارئ من خلال الوصف أن يتلمس مظاهر الترف والنعيم فى أوانيه وأشكاله وألوانه وطعامه وشرابه وكأنه يراها رأى العين، ثم بعد ساعات من الوقت يُطلع أعيننا على آثار الخراب حتى كأننا نرى أسراب النمل وأعشاش الخفافيش، ولعل دهشة ابن الخطيب واعجابه بتلك البقاع ورغبته فى رؤيتها وشوقه لأن يجوبها كان وراء هذا النقل الشامل ولا صلة له بطول الوقت الذى يقضيه ابن الخطيب فى المكان، ويؤكد ذلك أنه قد جاب "هنتاته" من شرقها لغربها وشاهد ربوعها وقصورها، وخرابها فى يومٍ واحد، وقد وقفتُ على ذلك من كلام ابن الخطيب نفسه، فقد قضى اليوم الأول من قدومه إلى الجبل محفوفاً بالتكريم من الأمير عامر بن محمد الذى جاء من محل سكناه بمراكش حفاوة بابن الخطيب، فيظهر عنصر الزمن حين يحدد ابن الخطيب بداية الوجهة لصعود الجبل والتجول فى جنباته حين قال: "وفى يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم توجهنا إلى الجبل" [2]

(١) لم أقف له على خبر إلا ما أورده ابن الخطيب في النفاضة ، فهو صنو عامر بن محمد الهنتاتي ، وحافظ سقيته ، وقسيمه في قعساء عزته الحسن الوجه ، الراجح الوقار ،النبيه المركب الملوكي البزة ، الظاهر الحياء ، نفاضة الجراب: ٢/١.

(٢) النفاضة:١/١.

وقد قضى هذا اليوم محفوفاً بالتكريم، متقلباً فى جنبات النعيم متخطياً للجبال والسهول والوديان التى تنتهى إلى أقوار فسيحة وأجواء رحيبة ينطق العمران من جوانبها، ويموج السنبل من ضواحيها.

وقد أنهى لسان الدين يومه فى صحبة أمير المكان فلما جنَّ الليل كان السمر والمجالسة فى لألاء الشموع الضاحكة فوق المنصات النحاسية وقد جرى فى الحديث بعضاً من تاريخ هذا المكان وسيرة أمير المسلمين أبى الحسن المرينى[١] الذى جاء لاجئاً إلى صاحب هذا الجبل محتمياً بعز جواره بعد أن أُغْمضت العيون عن نجدته، وأُغْلقت المسامع عن استغاثته وقد أجابه أمير الجبل فاستصحبه إلى مقر أهله ومفزع ولده، ودافع عنه بنفسه وقبيلته ورضى بتبدل الأحوال "فعادت قاعاً صفصفاً بمرأى من عينيه، فعاثت فيها ألسنة النار بأرض البوار عن طيب من نفسه حتى لكادت الكرة أن تتاح، والدولة أن تدول، والعثرة أن تقال، لولا طارق الأجل الذى رفع المنازعة فتوفى الله أمير المسلمين"[٢]وقد عقد ابن الخطيب النية على زيارة مدفنه فى الغد.

وفى الغد وهو اليوم الثالث من الرحلة تجرى الأحداث فى توجه ابن الخطيب فى مركب معد إلى مثوى أمير المسلمين، وقد وصف لنا وعورة الطريق الذى سلكه

(١) السلطان أبى الحسن المرينى: أشهر ملوك بنى مرين وأبعدهم صيتاً وكان قد ملك المغرب بأسره وبعض الأندلس، وامتد ملكه إلى طرابلس ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب أفريقية فرجع تونس مغلوباً، وركب البحر فى أساطيله وكانت نحو الستمائة، فقضى الله أن غرقت جميعاً وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم، ونجا السلطان على لوح وقد استولى ولده أبو عدنان على ملكه ولم يزل السلطان فى اضطراب حتى خلص إلى جبل هنتاته فذهب إلى حربه ابنه بجيوشه وأناخ على الجبل بكلكله، ولم تخفر أهل هنتاته جواره وساعده عامر بن محمد وأخوه وصبروا على الحصار، وخراب الديار وحرق الأماكن حتى مات هناك رحمه الله ثم نقل إلى شالة مدفن أسلافه ،ينظر نفح الطيب،١/٢١٣:٢١٦.

(٢) النفاضة: ١/٢.

ليصل به إلى غايته قائلاً: " فاقتحمنا وعراً تزل فيه الذُّر[١]، ولا يسلكه مع الحلم الطيف، وتجاوزنا مهاوى مُدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة فتقطع عمن وراءها الآمال"[٢]

ثم يسترسل فيطلعنا على صورة متداعية البنيان متهدمة الأركان تثير الشجن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فى قوله: " وهى دار قوراء[٣] نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها.....ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر متقابلة الأشكال، بيوتها لا طية[٤]السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال[٥] مستعمل على أرجل متخذه من اللبن والحجر ملبس بالطين حيث متوفى السلطان....." [٦]

ولم يخلص ابن الخطيب من زيارة هذا المكان حتى زار مسجد إمامهم المهدى، ودار سكناه، وأثر مدرسته، وسجنه كل ذلك من "الخمول واللطو

(١) الذُّر: صغار النمل، وقيل هو النمل التى لها قوائم وتكون فى البرارى والخرابات ويتأذى بها الناس، ينظر: جامع الأصول فى أحاديث الرسول مجد الدين ابن الأثير /ت. عبد القادر الأرنؤوط /مكتبة الحلوانى – دار البيان/٣٥٦/٩/وتهذيب اللغة للأزهرى ،١١٨/٢.
(٢) النفاضة:٣/١.
(٣) القوراء: الواسعة، تشبيهاً لها بقوارة الثوب، ولأنها كلما اتسعت كان أجمع، تاج اللغة وصحاح العربية/ الجوهرى /ت. أحمد عبد الغفارعطا/دار العلم للملايين – بيروت /ط٤/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م/٢/٨٠٠.
(٤) لاطية: اللطو: لزوق الشئ بالشئ، يقال رأيته لاطياً بالأرض ولَطَيْتُ بالأرض: إذا التجأ إلى صخرة أو غار. المحيط فى اللغة/الصاحب بن عباد ٣٣٠/٢.
(٥) الرطل: معيار يوزن به أو يكال، يختلف باختلاف البلاد، والجمع أرطال. المعجم الوسيط /لأحمد حسن الزيات وزملائه /ت. مجمع اللغة العربية بمصر /نشردار الدعوة ٣٥٢/١.
(٦) النفاضة/٣/١.

واستهجان الآلة على حال شبيهة بمبانى الدَّبْر [١]، وقرى النمل، وأعشاش الخشاش[٢] من الطير"[٣]

ويتعجب لسان الدين من فعل الزمن، وكر السنين الذى أتى على تلك الدار فأهلكها بعدما ملكت الدنيا طويلاً، ومن هذا المسجد البرى من الصنعة كيف قاد المنابر سنيناً، إنها حقاً سنة الله فى إدالة الدول كما وصفها ابن الخطيب.

وما هى إلا خطوات تأخذ من عمر الزمن بضعة دقائق ينحدر فيها ابن الخطيب ومن معه عن هذا المحل ويُسْهل ببطن الوادى وإذا بعينيه تدهش من جمال الجلسة التى كانت مهيئة لاستجمام السلطان رحمه الله فإذا بها وقد" أظلتها الأشجار تجرى تحتها عين خرارة كأعظم الأنهار فوق حصى كدُرِّ النحور، القريبة العهد بلجج البحور،.....وجلب إلى ذلك المكان من الطعام والفاكهة والشهد مايحار فيه الوصف"[٤]

ثم رجع ابن الخطيب إلى محل نزوله مثوى الكرامة، وسكنى الأشراف، وقد دُعِىَ لزيارة ما فى المكان من دورٍ، صوَّرها ابن الخطيب موضحاً حفاوة أهلها به وقد نقل إلينا جانباً من الحياة الاجتماعية لأهل هذا المكان وعاداتهم، وأدواتهم، وفرشهم.....ومعهم قضى لسان الدين يومه الثالث محفوفاً بألوان التكريم، مُغْدقاً عليه صنوف التحف والهدايا ما عجز عنه الشكر وبان عنه التقصير على حد قوله.

---

(١) الدَّبْر: بسكون الباء: النحل، وقيل: الزنابير، ينظر: لسان العرب لابن منظور/دار صادر بيروت/٤/٢٦٨.

(٢) الخشاش:الشرار من كل شئ وخص بعضهم به شرار الطير وما لا يصيد منها، وقيل: هى من الطير ومن جميع ذوات الأرض ما لا دماغ له.ينظر: المحكم والمحيط الأعظم /أبو الحسن بن سيده المرسى /ت. عبد الحميد هنداوى /دار الكتب العلمية بيروت /٢٠٠٠/٤/٤٩٥.

(٣) نفاضة الجراب: ٣/١.

(٤) نفاضة الجراب : ٣/١.

ابن الخطيب فى "أغمات"

وقد جرت أحداث اليوم الرابع فى زيارة تلك المدينة التى راقت ابن الخطيب بطبيعتها الخلابة فصورها لنا أبدع تصوير وقد زار مسجدها العتيق كبير الساحة، رحيب الكنف، وقد حوى مئذنة لا نظير لها فى معمور الأرض، ولم يترك ابن الخطيب صغيراً ولا كبيراً فى تلك المدينة إلا وصفه فهى بلد فى مكان رحب طيب التراب كثير النبات والأعشاب والمياه تخترقه يميناً وشمالاً وتطرد بساحاته ليلاً ونهاراً، وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة، طيبة الثرى، عذبة الماء، منيعة البناء، نزهة للأبصار، وعبرة لأعين النظار.

وأهل أغمات: هوارة لهم سلامة وسذاجة، حتى صارت أخبارهم وملحهم مضرب الأمثال ومنها أن ملك المغرب لما عجب من مئذنة جامعهم الكبير استأذنوه فى نقلها إلى بلده على سبيل الهدية !!

وقد تذكر لسان الدين فى تلك البلدة من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها كالمعتمد بن عبَّاد الذى حرص ابن الخطيب على زيارة قبره خارج المدينة، وبجواره قبر اعتماد الرميكية[1] فترحم عليهما وأنشد:

---

(١) هى: شاعرة أندلسية كانت جارية لرميك بن حجاج فنسبت إليه وآلت إلى المعتمد بن عباد فتزوجها، وَوُلِد له منها المأمون والرشيد والمؤتمن، وبثينة الشاعرة، ولما غار يوسف بن تاشفين على أشبيلية أسر المعتمد والرميكية وأرسلهما إلى أغمات، وماتت بها قبل المعتمد بأيام وقد ساء حالهم حتى إن بنات المعتمد كن يغزلن للناس للتكسب وفى ذلك يقول المعتمد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
من بات بعدك فى ملك يُسربه ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

ينظر: الأعلام: ٣٣٣,٣٣٤/١ ،مرآة الجفان وعبر اليقظان فى معرفة حوادث الزمان/ لليافعى ٤٦٦/١.

قـد زرتُ قـبرك عـن طـوع بأغمـات رأيــتُ ذلــك مــن أولى المهمــات

لم لا أزورك يا أنــدى الملــوك يــداً ويا ســراج الليــالى المــدلهمات

وأنـت مـولى تخطـى الـدهر مصـرعه إلى حيــاتى أجــادت فيــه أبيــاتى

أناف قــبرك فى هضــب يميــزه فتنتحيــه حفيــات التحيــات[1]

وقد ختم لسان الدين يومه بزيارة أجداث العديد من الأولياء والصالحين.

وفى صبيحة الغد شرع فى الانصراف من "أغمات" حتى دخل مدينة "آسفى" فى متمكن الضحى؛ لزيارة من بها من أولياء الله الصالحين، وقد لقى بها جملة من أولى الدين والدنيا الذين وصفهم، وكشف عن أخلاقهم وما عرفوا به، وقد صلى ابن الخطيب بمسجد المدينة الجامع الذى ينبئ بقدم العهد، وتجنب فضول الزخرف فإذا به " مبنى عتيق، ومجمع فسيح، متعدد الزيارات والصحون، رُفع به عمداً تناهز الأربعين، بادية ضخمة خشنة.....يباشرها سقف لاطئ من غير نقش ولا إحكام....." [2]

وقد قضى لسان الدين يومه الخامس والسادس والسابع وهو يوم السبت فى تلك المدينة متنقلاً فى جنباتها مخالطاً لأهلها وفى يومه السادس قد نزل على بيت ينسب لأبى خدو، وفيه رجل من بنى المنسوب إليه، فألطف وأجزل وقد قضى لسان الدين ليلته فى داره فطلب منه الرجل أن يكتب له تذكرة تثبت تلك الذكرى فيما يأتى من الأيام فكتب له لسان الدين: [3]

نزلنــا علــى يعقــوب نجــل أبى خــدو فعرفنــا الفضــل الــذى مــا لــه حــد

(١) الصيب والجهام والماضي والكهام / ابن الخطيب/ت.د. محمد الشريف قاهر،ط.١/ الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ١٩٧٣ م.

(٢) النفاضة :١/١١.

(٣) السابق:١/١١.

وقابلنـــا بالبشـــر واحتفـــل القـــرى فلـــم يبـــق لحـــم لم ننلـــه ولا زبـــد

يحـــق علينـــا أن نقـــوم بحقـــه ويلقـاه منـا الـبر والشـكر والحمـد

وارتبـاط لسـان الـدين بأدبـاء المشـرق أمـر مقطـوع بـه، ولـه دلالتـه، ولعـل استحضار أدب المشرق أمر لا يغيب عن سماء أدباء الأندلس ومنهم ابن الخطيب فهو حين شكر هذا الرجل البسيط المقل الذى بذل غاية ما يمتلكه، ربط بين صنيعه وما وقع لبشار بن برد حين قيل له أنت تقول: (١)

إذا مـــا غضـــبنا غضـــبة مضـــرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

ثم تقول: (٢)

ربابـــــــة ربـــــــة البيـــــــت تصـــــب الخـــــل فى الزيـــــت

لهـــــا ســـــبعة دجاجـــــات وديـــــك حســـــن الصـــــوت

فقال: قلتُ ذلك أخاطب المرأه من البادية فى خيمة قرتنى بدجاجة وبيض، وكانت هذه الكلمات لديها أحسن من قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

ثم سافر ابن الخطيب من يومه السابع إلى سور "دكالة" سور له شرفات وأبراج غير مرتب البناء، غير محكم الغلق لجهل هذه الأمة بالتحصين وهو مكان جم الماشية، ملئ على انفساحه بالإبل.....والخيل والثيران التى بلغ عددها ثلاثة آلاف من أزواج الثيران تثير الأرض وتسقى الحرث، ويحتمى بها عند غارة الأعداء، وقد رُفع إلى السلطان أبى العنان ما هم عليه من إخافة عددهم، واستهداف أموالهم، فأمر بتأسيس مدينة وأحاطهم بخندق، وأقيمت الأبواب وشيدت الأبراج، ولم يكتمل البناء فقد وافاته المنية.

(١) ديوان بشار بن برد /شرح /د. صلاح الدين الهوارى / مكتبة الهلال /١٩٩٨م. ١٦٢/٤.
(٢) السابق : ٣٠/٤.

وختم ابن الخطيب يومه فى صحبة أهل الفضل والعلم الذين أتى على ذكر بعضهم فى النفاضة، ثم رحل من الغد فى سهل أوصله حدود الصناهجة وقد أنهى يومه دون أن يطالعنا على خبر من قابل، ولا صورة ما رأى حتى بات بموضع يعرف ب" أسكاون"[١]

وعاد من الغد إلى " أزمور" فحمد العود؛ حيث لقى هو ومن معه جمعاً من الفضلاء وقد أتوا كل بر وعلى رأسهم الحسن بن يحيى بن حسون[٢] مخجل الضيف من سعة ولطف وقد مدحهم ابن الخطيب قياماً بحقهم.

فصل فى ذكر مسير ابن الخطيب إلى مدينة " سلا "

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعاً من سفرته هذه وانتهى إلى سلا أقام بها منتبذاً عن سلطانه رافضاً للملك وأسبابه طول مقامه بالمغرب، وقد عزم على التخلى عن الدنيا والانقطاع إلى الله، فاختار أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها، ولما استقر بها واطمأن جنبه قال:

يأهل هذا القطر ساعده القطر بُليتُ فدلونى لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا ونمتُ مفرطا وفى شغلى ونومتى سرق العمر

ثم رحل إلى شالة حيث مدفن ملوك بنى مرين، وانقطع إلى ضريح السلطان أبى الحسن المرينى، فحط رحله فى القبة المقدسة طالباً شفاعة صاحبها عند ابنه السلطان أبى سالم فى انفاذ أمر يسهل عليه لا يجر إنفاذ مال ولا اقتحام خطر

---

(١) لم أقف على مكانها.

(٢) أرسله صاحب فاس عاملا على الثغر بأزمور فأقام بها، وكان أصله صنهاجة أهل وطن أزمور، وله سلف فى خدمة بنى مرين منذ أول دولتهم، وأبوه يحيى فى دولة السلطان أبى الحسن وهلك فى خدمته وترك ولده يستعمل فى مثل ذلك، فنزع الحسن إلى الجندية ولبس شارتها وتصرف فى الولاية، واتصل بخدمة السلطان أبى العباس لأول بيعته بطنجة، وشهد معه الفتح، واستعمله فى خطط السيف حتى ولاه أزمور، ينظر: تاريخ ابن خلدون:٧/٣٤٦.

وإنما هو إعمال لسان فى طلب ماله وولده من أهل الأندلس الذين يعظمون مقام السلطان أبى الحسن " فحرمة شالة معروفة حاش الله أن يضيعها أهل الأندلس"(١)

وقد لزم لسان الدين "شالة" سلا على عادة أهل زمانه ممن نزلت بهم النكبات أو اشتدت بهم الأزمات ومن هناك دارت بينه وبين السلطان أبى سالم المرينى مراسلات كثيرة، وبعدها أجابه السلطان المرينى وأرسل إلى أهل الأندلس فقبلوا شفاعته وردوا على ابن الخطيب ما أمكن رده فطال مقامه بسلا عامين ثم استدعاه سلطانه الغرناطى إلى الأندلس بعد رجوعه فأجابه حياء لا رغبة ومكرهاً لابطل. (٢)

تهنئة ابن الخطيب للسلطان أبى سالم المرينى بمناسبة فتح تلمسان :

لما اكتمل للسلطان أبى سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج منه سمت همته إلى تملك تلمسان كما كان لأبيه من قبل فأجمع السلطان النهوض إليها، وعسكر بظاهر " فاس" ولما توافت لديه الحشود وتكاملت عنده الجنود ارتحل إلى تلمسان، واتصل خبر نهوضه بسلطانها "أبى حمو بن يوسف الزيانى"(٣) فنادى فى المغرب فأجابوه فخرج هو وشيعته عن تلمسان إلى الصحراء فاستولى عليها أبو سالم ،وكان ابن الخطيب عندما بلغه هذا الأمر هنأه بقصيدة طويلة مطلعها:

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

(١) نفاضة الجراب :١٥/١.
(٢) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى:٣٢/٤.
(٣) هو : عبد الله بن موسى أبو حمو بن يوسف الزياني "٧٦٩-٧٩٦ "من سلاطين تلمسان المعروفين ببني عبد الواد كان موالياً لخصومهم بني مرين أرسله أحد سلاطينهم لإخراج أخيه من تلمسان فدخلها بسيوف بني مرين وقتل أخاه وقال عنه ابن الأحمر : كان شديد القسوة سفاك للدماء، الأعلام : ٢٥٤/٨.

ثم اتبعها برسالة طويلة منها: " فالحمد لله الذى أقال العثار ونظم بدعوتكم الانتثار وجعل ملككم يجدد الآثار....." [١]

فصل فى إدالة الدولة بالأندلس ثانية:

وبينما يتوسط الرسول الذى حمل عن لسان الدين التهنئة إلى السلطان المرينى إذ وافته الأخبار عن أوضاع الأندلس وسيرة سلطانها إسماعيل بن الأمير أبى الحجاج[٢] الباغي على أخيه بعد أن أفلت من سجن لم يكسبه اعتباراً ولا خشية "ملقياً بيده فى مساقط المئجنة، غير مستتر بالقاذورات ولامُوَرّ بأخابث الشهوات" [٣]

وقد نكل ابن عمه زوج أخته[٤]وهو من " أوطأة السنام والذروة، واستخلص له الملك من لهاة الليث، فتجهم له، وانفرد بالخالص دونه، وشرع فى القبض

(١) النفاضة : ٢٠/١.

(٢) هو إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن نصر السلطان الذى احتال على أخيه المتوثب على ملكه يكنى أبا الوليد، ولد بغرناطة، وشب والملك بيد أخيه محمد " الغنى بالله"، وقد أسكنه بعض القصور واستمرت أيام احتجابه حتى عام ٧٦٠هـ فاجتمع حوله من شجعه على الثورة، وأفلت منهم الغنى بالله وانتظم الأمر لإسماعيل سنة واحدة إلى أن قتل غيلة وقد استولى على الملك صهره الذي أخذ الملك للأمير ابتداءً ثم نقله إلى نفسه انتهاءً، فأظلم ما بينهما فحذر كل جانب أخيه إلا أن الأمير كان أضعف، ففى مساء يوم الأربعاء ٢٧ شعبان شارفه من مكمن غدره بجوار قصره وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية ودخل عليه فقام رجاله بسد الأبواب وانخرط هو فى جملة من أوباشه من باب السلطان وحاول الأمير الاعتصام بثانى الصرح، وصرخ بالناس يناشدهم الذمام فخف إليه منهم الكثير وقد أمر بإنزال الأمير مقيداً وتعاورته السيوف وألحق به صغيره قيس وطرحت رأسه على المجيبين لندائه فانفضوا لحينه وبقى مطروحاً إلى يوم غده حتى ورى هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم عام ٦١. الأعلام: ٣٢٩/١، ٣٣٠.

(٣) النفاضة:٢٢/١.

(٤) هو محمد بن إسماعيل بن فرج الرئيس المتوثب على الملك وعاقد صفقة الخسران المبين يكنى أبا عبد الله، كان شيطاناً ذميم الخلق قواد عصبة كلاب معالجاً لأمراضها، مباشراً = =للصيد

عليه....." [1]وفى أخبار طويلة قص ابن الخطيب أحداث نكبة هذا الأمير، ومن تصدى لاستغاثته، فأكثر هذا الطاغية القتل والفتك حتى لبعض أنصاره "فلا بالدنيا استمتعوا ولا بالذمام تمسكوا، ولا بحبل الله اعتلقوا، ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين....". [2]

وقد أطل لسان الدين بفكره ونظره من أرض المغرب فصوَّر سوء وفساد أفعال هذا السلطان، وما جنته الأندلس من حمقه وطيشه المسبوق بخيانته وغدره وقد سجل لنا لسان الدين تلك الأحداث فى قصيدة طويلة قال فيها: [3]

كُن من صروف الردى على حذرٍ لا يقبل الدهر عذر معتذر

ولا تعول فيه على دعة فأنت فى قُلْعَةٍ وفى سفر

فكل ريٍّ يفضى إلى ظمأ وكل أمر يدعو إلى غرر

وكل حيٍ فالموت غايته وكل نفع يدنى إلى ضرر

بها، عقد له السلطان على بنته لوقوع القحط فى رجال بيتهم، ونوهه بالولاية إلى أن هلك، وحاد الأمر عن شقيق زوجه واستقر فى أخيه وثقل على الدولة لكراهة طلعته، وسوء الأحدوثة به، فأمر بترك القلعة وأبقيت عليه النعمة، فداخل أم زوجه وضمن لها تمام الأمر لولدها، فأمدته بالمال فاستعان بشيعة من مختلس البضائع وقتلة الزقاق حتى استولوا على القصر، ثم انخرط فى طور غريب من التنزل للسلطان، ولما علم أن الأمر يشق تصيره إليه من غير انقياد الناس إليه ألطف الحيلة إلى السلطان فى مساعدته على اللذات وإغرائه بالخبائث، وشغله بالعهر، وجعل ينفق من سلع اغتيابه، وضم الرجال إلى نفسه، حتى ثار به فى محل سكناه، وقتله واستولى على الملك، وقد استدرجه طاغية الروم حتى انتهى من حروبه، ثم تفرغ له وقبض عليه هو وشرذمته، وحزَّ رؤوسهم ومثل بها بظاهر أشبيلية فى عام٦٣هـ. ينظر: الإحاطة:١/١٣١:١٣٣.

(١) النفاضة: ٢٢/١.

(٢) النفاضة:٢٣/١.

(٣) نفاضة الجراب: ٢٦/١.

ويبدو أن أخبار الأندلس وأحداثها التى تجرى لا سيما فى غرناطة أمرً يشغل فكر ابن الخطيب إذ نراه يطيل الوصف والسرد لتلك التغيرات والانقلابات حتى إنه ذكر أسماء من خلع من القواد والوزراء، وما جرته الأيام لهلاكهم والتخلص منهم، ولا جرم لهم إلا أنهم كانوا أقطاباً فى الدولة السالفة، ولم ينس فى هذا المقام أن يذكر أسماء من حلوا لشغل هذه الثغور وقد ترجم لهم لسان الدين فأوجد قاسماً مشتركاً بينهم وهو أن أنفسهم قد انطوت على السوء والعفن.

وفى أواسط شهر محرم من عام اثنين وستين خرج ولد السلطان الغنى بالله الذى أبرم أمر خلاصه بعد مبايعته لهذا المتغلب مؤثراً المهادنه تحرجاً مما تجره المخاشنة من صدع يصيب عصا الإسلام، وقد رحل هذا الأمير ومعه أمه فى قلة من جواريها بحال بائسة " وقد ضنَّ ظالمهم على جميعهم بما لم تكن لتضره السماحة به والتهاون بحقيره فى جنب ما رزأهم من متاع الدنيا الذى لانهاية وراءه فى الظرف والبهجة....." (١)

وفى صفحات هذا الفصل من النفاضة أيضاً يُطْلعنا لسان الدين على جانب من الحياة الاجتماعية والدينية فى المغرب وعلى وجه التحديد فى "شالة" وهو ما يعرف بنشاط الصوفيين فى زيارة الأضرحة والاحتفال عندها وشد الرحال إليها وكان ذلك فى السابع والعشرين من محرم من نفس العام الذى نحن بصدد سرد أحداثه. وهو ما يعرف عندهم بموسم " شاله" حيث " استجلاب الأمم، وتخيم الخيم، واحتفال الأسواق، ورفع المغارم....." (٢)

وقد أنشد لسان الدين ليلتئذ قصيدة من ثمان وخمسين بيتاً فى حب النبى ﷺثم الثناء على خلفاء الأندلس والإشادة بجهادهم والذود عن دين الله.

(١) نفاضة الجراب: ٢٨/١.
(٢) السابق:٢٩/١.

ومنها قوله: (١)

إذا فـــاتنى ظـــل الحمـــى ونعيمـــه	كفـــانى وحســـبي أن يهـــب نســـيمه
ويقنعـــــنى أنى بـــــه متكيـــــف	فزمزمـــه دمعـــي وجســـمي حطيمـــه
يعـود فـؤادى ذكـر مـن سـكن الغضـى	فيقعـــده فـــوق الغضـــى ويقيمـــه
ومـــا هـــاجنى بالغـــور قـــدُّ مـــرنح	ولا شـــاقنى مـــن وحـــش وجـــرة ريمـــه
ولا ســـــهرت عيـــــنى لـــــبرق ثنيـــــة	مـــن الثغـــر يبـــدو موهنـــا فيشـــيمه
بـــــرانى شـــــوق للنـــــبي مُحَمَّد	يســـوم فـــؤادي برحـــه مـــا يســـومه

وقد تعددت أشعار ابن الخطيب فى هذا الفصل فى مناسبات مختلفة كالتهنئة بشفاء، أو مخاطبة أحد الشرفاء، أو غيرها من الأحداث التى استدعتها طبيعة الحياة فى المغرب كذلك كثرت مراسلات ابن الخطيب إلى علماء عصره وقادة زمانه أمثال ابن خلدون وابن بطوطة(٢)مهنياً الأول بمولود في كتاب طال فيه نفسه، واتسع بيانه، ثم مصوراً لرغبته فى الإقامة بجوار الثانى.

(١) النفاضة:١/٢٩.

(٢) ابن خلدون: ٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م. يعتبر بحق أبو التاريخ، وأبو علم الاجتماع عبَّر مؤلفه الشهير " مقدمة ابن خلدون عن تاريخ العالم، هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمى، من ولد وائل بن حجر الفيلسوف المؤرخ، أصله من أشبيلية ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً مختلفة، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولى فيها القضاء ثم عزل وتوفى فجأه فى القاهرة.
ينظر ترجمته: رفع الإصرار عن قضاة مصر/ابن حجر العسقلانى ١/١٠٠/١٠١/١٠٢/ ٢١١، الضوء اللامع ٥٠/٣٦٨، الأعلام: ٣/٣٣١. =

وقد ختم ابن الخطيب عام واحد وستين وسبعمائة بمساجلة دارت بينه وبين الفقيه أبى القاسم بن رضوان[1] مواسياً له فى مرضه بكتاب طويل صدره بنظم منه: [2]

مرضت فأيامى لذاك مريضة وبرؤك مقرون ببرء اعتلالها

فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غر خلالها

وقد راجعه أبو القاسم بنثر بليغ مصدراً إياه بنظم عارض فيه ابن الخطيب قائلاً: [3]

متى شئت ألفى من علائك كل ما ينيل من الآمال خير منالها

كبرء اعتلال من دعائك زارنى وعادات برٍّ لم تَرِمْ عن وصالها

وقد انتهى هذا الفصل بعدد كبير جداً من الرسائل والقصائد التى تصور بدقة علاقة ابن الخطيب بالآخرين على اختلاف طبقاتهم، وتباين منازلهم، مابين سلطان، وقائد، ووزير وفقيه، وأخ وصديق؛ لتحمل هذه المكاتبات شعراً كانت أو

= *ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجى، رحالة مؤرخ، طاف البلدان واتصل بكثير من الملوك والأمراء طاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق، وفارس واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم، وكان ينظم الشعر وعاد إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان أبى العنان فأقام فى بلاده، وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزى بمدينة فاس واستغرقت رحلته ٢٧سنة فارتحل إلى أصقاع بعيدة أوصلته تومبكو وإلى بكين وإلى الفولفا وهو لا شك رحالة على نفس مستوى ماركوبولو، وتوفى فى مراكش عام ٧٧٩هـ. وتلقبه جمعية كمبروج فى كتبها بأمير الرحالين المسلمين.ينظر: الدرر الكامنة:٣/٤٨٠. الاحاطة: ١/٤٣٩، الأعلام: ٦/٢٣٦.

(١) لم أقف فى ترجمته إلا على أنه كاتب السلطان ابن تاشفين، النفحة النسرية،١/١٣.

(٢) نفاضة الجراب: ١/٣٠.

(٣) نفاالسابق:١/٣٠.

نثراً جملة من المعانى والموضوعات التى تعكس لنا بوضوح اهتمامات الشعوب فى تلك البلاد.

ويلاحظ فى الفصول الأولى من النفاضة أن الكاتب رتبها ترتيباً زمنياً بحيث أوردها حسبما وقعت له، ثم فى الفصول الآخيرة يروى لنا أخبار القطرين وما جرى فيهما من أحداث وما شهداه من أيام كانت على مرأى ومسمع الكاتب لذا نراه فى مطلع الفصل التالى يؤكد على عنصر الزمن تأكيداً منه على معايشته لمجريات الأمور فى فترة منفاه يوماً بيوم سواء أكان هو بطل الأحداث كما طالعنا ذلك فى الفصول الأولى أو قام بدور الراوى للأحداث كما فى بعض الفصول.

ففي ربيع الأول من عام٧٦٢هـ فرَّ جماعة من قادة الأندلس إلى المغرب أمثال يحيى بن عمر رحُّو،[١] والشيخ الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن النباهى[٢] وقد راسلهم ابن الخطيب بعد أن تلقاهما السلطان المرينى، وَنَّوه بهما وأدنى جوارهما.

وفاة زوجة ابن الخطيب :

وفى السادس لذى القعدة من عام ٧٦٢هـ أصاب ابن الخطيب حدث جلل أشجاه وأحزن قلبه وقد حكاه فى قوله: " طرقنى ما كدّر شربى، ونغص عيشي من

(١) ولد بظاهر تلمسان عند لحاق أبيه بسلطانها ٦٩١، وهو جد الملوك من بنى مرين، يكنى أبا زكريا، وهو شيخ الغزاة ورئيس جميع القبائل بالأندلس، وهذا الشيخ مستحق الرتبة، أهل لهذه الرياسة بأساً ونجدة وعتقاً وأصالة، ودهاء ومعرفة وتمادت ولايته إلى أوائل شهر رمضان عام٧٦٢هـ– فلما تصيرت الأمور إلى محمد بن إسماعيل عزله وَهَمَّ به، ففر إلى بلد الروم واستقر عند طاغية الروم فأولاه من الجميل ما يفوق الوصف وعادت رتبة هذا الرجل بعد أن رد الله إلى سلطان الأندلس ملكه، الاحاطه: ٨٨/١.

(٢) لم أقف على ترجمته.

وفاة أم الولد عن أصاغر زُغب الحواصل بين ذكران وإناث فى بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فحلت عليها حسرتى واشتد جزعى....." (١)

وقد رثاها لسان الدين بقصيدة زيَّنت قبرها منها قوله: (٢)

رُوِّعَ بالى وهـــــاج بَلْبَـــــالى وســـامنى الثُّكُـــلُ بَعْـــد إقْبَـــالِ

ذخيرتـــى حـــين خـــاننى زمـــنى وعُـــدَّتى فى اشـــتداد أهـــوالِ

حفـــرت فى دارىَ الضـــريح لهـــا تعلـــــلاً بالمحـــــال فى الحـــــال

فَـــانَتَظَرَينى فالشـــوق يقلقـــنى ويقتضـــى ســـرعتى و إعجـــالى

وفى هذا الوقت بلغ ابن الخطيب خبر وفاة عبد العزيز الهنتاتى صنو عامر بن محمد فخاطبه معزياً بنظم ونثر نفذ من خلاله لعزاء نفسه فى مصابه.

وإلى هذا الحد نلاحظ التتابع الزمنى والتسلسل التاريخى المؤرخ لفترة منفى ابن الخطيب.

إلا أنه قد أقحم هذا الترتيب ببعض الفصول التى رجع بذاكرته فيها إلى أحداث الصراع السياسى القاتل الذى شهدته أرض المغرب والأندلس على حد سواء ما بين قتل وذبح، وصلب، وتمثيل، وغدر وليس ذلك كله إلا وصولاً لمطمع سياسى، أو رغبة فى تخلية الطريق للوصول للحكم، أو شفاء غل الصدور التى ما انطوت إلا على حقد وكره وذلك فى الفترة الوجيزة قبل رحيل ابن الخطيب فى صحبة سلطانها إلى المغرب، فكشف عن الأحداث والصراعات التى أدت بدورها إلى أن تَصَيُر الأمور إلى أبى سالم المرينى الذى كان له دورٌ فعال فى تجيِش سلطان الأندلس لاسترداد ملكه وإجازته إلى وطنه.

---

(١) نفاضة الجراب: ٨٥/١.

(٢) السابق: ٨٥/١.

كما استطرد فى ذكر المكايد التى حيكت للإيقاع بالسطان المرينى وانتهت بقطع رأسه.

وكذلك نرى أن ابن الخطيب وإن لم يرحل مع سلطانه إلى الأندلس إلا أنه قد تابعه خطوة بخطوة منذ أن حرك ركابه إلى سبته ثم حلوله بجبل الفتح ومراوضته لكبير قواد الأسطول الرومى، ثم استقراره بالجبل حتى لقى ملك الروم وأبرم معه معاهدة قرَّ بها عينه وجبر بها كسره، وقد اهتزت الأندلس لوجهته وفرحت بمقدمه وترددت الخطابات بينه وبين مناصريه من أهل الأندلس من جانب وبينه وبين لسان الدين من جانب آخر فى طلب استصحابه وعودته معه إلى الأندلس وإيثار لسان الدين للبعد عن السياسة والخدمة واحتياله فى تأخير رجوعه حتى يتم الأمر للسلطان فيرجع إليه بولده وأهله، ولسان الدين فى كل ذلك قد عقد العزم على الانصراف إلى بيت الله " من غير تلبس بخدمة، ولا غمس يدٍ فى فرث خطة، ولا مغير للنسك من هيئة ولا لبسة"[1] وفى هذا الغرض نظم لسان الدين قصيدة طالت أبياتها حتى أربت عن المائتى بيت فكانت متنفساً لهذا الشوق العارم فى زيارة بيت الله الحرام.

وقد أفرد ابن الخطيب فصلاً كشف عن بعض الحيل التى لجأ إليها سلطان الأندلس الغاصب فى إثارة الفتن فى بلاد المغرب على يد بعض المرتهنين عنده من أهلها، حتى إذا ما اجتمع أهل المغرب على البيعة لهم، ساندوه فى مهاجمة سلطان غرناطة المخلوع ومنعه من استرداد ملكه وقد أحاط ابن الخطيب بتفاصيل الأحداث ودقائقها بما ينبئ عن طبيعة الحياة، والعلاقات، وطبائع النفوس فى تلك البقاع. وكذلك طالت الصفحات التى حكى فيها لسان الدين بعض الحيل التى كانت تُنْسج من بعض الأطراف للإيقاع بالآخرين دون سلطان رادع أو دين زاجر.

(١) نفاضة الجراب:١/٩٣.

ولا شك فى أن هذه الأوضاع تطلبت مراسلات، وكتابات دارت بين أطراف هذه الصراعات.

وقد أنهى لسان الدين هذا الجزء من النفاضة بذكر الوقائع التى خاضها الأمير عبد الحليم وأخوه عبد المؤمن للاستيلاء على المغرب بمشورة سلطانها الغاصب والتى انتهت بهزيمة نكراء على يد الوزير أبي عمر بن عبد الله بن على[1] الذى قاد حملة من جيشه المظفر للقبض على من كان بمكناسة من طائفة الأمير عبد الحليم، وقد جاءت أخبار هذه النهاية كما ذكرها ابن الخطيب حين قص لنا خطاب سلطان المغرب إلى سائر الأشياخ يعلمهم فرار عدوهم، وكفاية الله لهم شر الفتن وكان ذلك فى الثانى عشر من جماد الأول لعام٧٦٣هـ وقد ختم هذا الجزء بوعد من ابن الخطيب بإتمام الأحداث التى شاهدها بالمغرب حتى وصله الأمر الأخير من سلطان الأندلس باستقدامه واللحاق به بعد أن تم له الأمر ودخل دار ملكه، وعاد إلى أريكة سلطانه فى زوال يوم السبت عشرين لجمادى الثانية من عام ٧٦٣هـ ثم رحيل ابن الخطيب بولد السلطان يوم السبت الموفى عشرين شعبان عام٧٦٣هـ.

ومن خلال عرض أيام هذا الجزء التى قضاها ابن الخطيب فى بلاد المغرب يمكن أن نتوصل إلى القيمة الوثائقية لهذه الرحلة والتى تجسد علاقة الأندلس بالمغرب، بما كان للدولتين من علاقات وثيقة وروابط متينة، كما تصور لنا

(١) عمر بن عبد الله هو المؤتمن على البلد الجديد دار ملك السلطان أبى سالم وقد غدر به واستبد بحكم المغرب فترة بعد أن اغتال سلطانه، وقد أخذ البيعة لأخيه الماجن حتى صفر من عام٧٦٣هـ ثم استدعى من باب قشتاله الأمير محمد أبو زيان ابن أخى السلطان أبى سالم، وقد استقر نازعاً إليها أيام عمه، واستمرت أيام هذا الأمير وهو مغلوب على أمره، مُغْرَى بالشراب إلى أن ساءت حاله وامتلأت نفسه موجدة على هذا الوزير، ولكنه عاجله بحتفه وباشر اغتياله، وبايع فى يومه أبا فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن، وهو صبى ظاهر النبل والإدراك فأعمل الحيلة لأول أمره على هذا الوزير فطوقه الحمام واستأصل ما زراه من مال وذخيرة، ينظر: الإحاطة:١/١٥٥.

الصراع الذى كان دائراً فى هذه المنطقة وما كانت تخوضه هذه الدولة من حروب ووقائع ضد العدو النصرانى باسم الجهاد مدافعة أحياناً، ومسالمة ومهادنة أحياناً أخرى، وأحياناً غازية فاتحة، وأحياناً منهزمة منكسرة وأحياناً منتصرة منتشية.

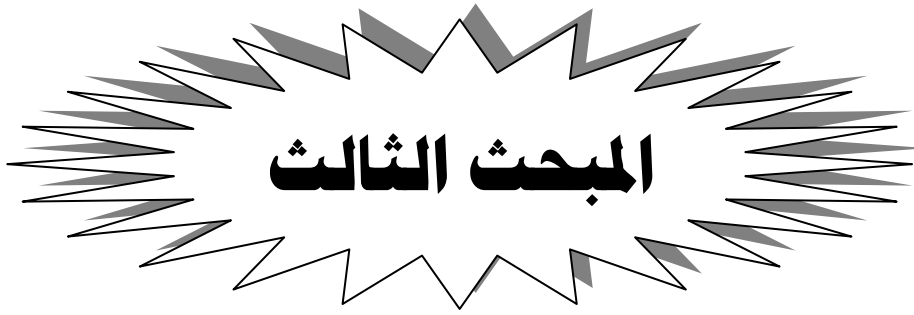

المبحث الثالث

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

نقد وتحليل

النفاضة بين الرسالة والمقامة :

التقت الرسالة والمقامة[١] على إظهار لون أدبي هو أدب الرحلات

« فكلتاهما قصة طواف ينتقل فيها الأديب من مدينة إلى مدينة ومن حوزة أمير إلى حوزة أمير آخر »[٢].

ولذا فيمكن أن نعد هذا الكتاب مقامة من ناحية دون آخري فهو مقامة من حيث مضمونه ومجري أحداثة إذ يدور حول قصة نزهة ووصف مشاهد وتضمين للوصف النثري بالشعر، ولكنه يخلص إلى أدب الرحلة دون المقامة ؛ لأن صاحبها لم يستتر وراء اسم شخصية متخيلة، وزمن مبهم، بل تحدث ابن الخطيب في رحلته بلسانه وحدد تاريخ الرحلة؛ ليربط الحادثة ربطاً بالواقع من حيث الزمان والمكان.

وقد يرجع هذا الشبه إلى ما وصلت إليه طبيعة المقامة الأندلسية التي

« انتفَتْ من بعضها صفة الكدية والحيلة المقترنة بها وأصبحت صورة من رسالة يقدمها شخص بين يدي أمر يرجوه، أو أمل يحب تحقيقه، فأصبحت وصفاً للراحة والتنقل في رياض الأندلس »[٣]

(١) المقامة: نوع من الحكاية القصيرة تروى على لسان أحدهم وبطلها رجل أحكم التحيّل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، ويوصف عادة بالدهاء والتكدية وغايتها لغوية أدبية، ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط.٩ ، ١٩٩٨/٣٦٢.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي: د. إحسان عباس، ١/ ٣٠٨.
(٣) السابق.

وقد مثّل هذا الجانب بوضوح عند ابن الخطيب مقامات عدة منها :

« معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار » التي آثر د/ شوقي ضيف وصفها بالرحلة دون المقامة[١]على الرغم أنها في الوصف تضارع المقامة تسجيعاً وتوازناً.

ونفاضة الجراب التي بين أيدينا فقدت في جملتها العقدة، كما فقدت الشخصيتين الخياليتين وجاءت على لسان كاتبها كما هو واضح من المبحث السابق.

أسلوب النفاضة :

إذا أردنا أن نكون منصفين وموضوعيين في الحكم على أسلوب لسان الدين ابن الخطيب في رسالة النفاضة، فيجب أن نوضح بداية أسلوب الكتابة المتبع في عصره والمنهج المرتضي في زمانه حتى يمكن أن ننظر إليه من خلال عصره.

ومن المقرر أن الصناعة البديعية أخذت تشتد في القرن الرابع الهجري لكنها لم تقضِ على الأسلوب المتوازن الذي عرف قبل ذلك عند الجاحظ ومن حذا حذوه، فقد سيطر الأسلوب الإنشائي على الأدب المنثور واقترنت سيطرته بسيطرة البديع من القرن الرابع فكانت البلاغة العربية منذ ذلك الحين عبارة عن حسن التسجيع مقروناً بالتوفر على المحسنات اللفظية والمعنوية. [٢]

(١) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات : د/ شوقي ضيف / دار المعارف / ط٣ /١٩٩٩/٥٣٠.
(٢) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي / ١٩٧.

وسيطرة الأسلوب المسجوع المقترن بالبديع على كتابة الأندلسيين في قرون عدة يراها د/ مصطفي الشكعة نتيجة طبيعية لتأثرهم بالمشارقة، فيذكر أن الكتابة الأندلسية لا يصيبها أي تطور أو تغير، بل تظل مصرة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها، لا يبدل الزمن من شكلها ولا الأحداث من صوغها وأسلوبها، وإنما تظل أمينة على متابعة نظائرها في المشرق تتعقد تلك منهجاً وأسلوباً فتسرع هذه إلى ملاحقتها، وتوغل تلك تصنيعاً وسجعاً وجناساً فتزداد هذه حماساً إلى التصنيع والسجع والجناس. (١)

ولسان الدين ابن الخطيب لم يكن بمنأى عن الإطار العام لكتاب عصره فهو واحد من الكتاب الأندلسيين الذين كانوا من البراعة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنيع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائماً بجمال الجرس وحسن الأداء وظل ذلك ماثلاً في كتابات الكتاب بغرناطة طوال إماراتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع. (٢)

ومن المسلم به أن سعة اطلاع ابن الخطيب في اللغة العربية وفنونها ساعده على أن يكون من كبار الكتاب، وكانت عنايته في الكتابة الأدبية موجهة إلى الصناعة اللفظية، إذ كان يعني باللفظ عناية عظيمة، ويقصد إلى التنميق،

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه :د.مصطفي الشكعة، دار العلم للملايين ط٩، ١٩٩٧، ٥٧٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات : د/ شوقي ضيف / ٤٣٤.

وتعمُّل السجع، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء وعبارات التبجيل والتعظيم. (١)

ولكن هل جرت النفاضة كغيرها من كتابات ابن الخطيب على نظام السجع والتفنن في ضروبه ؟

من الواضح أن هذه الرحلة لم تأتِ على نفس النسق المسجوع الذي كتبت به باقي رحلات ابن الخطيب، فقد جاءت مرسلة غير مسجوعة في أغلب فصولها، فجاءت بأسلوب مرسل، يميل إلى السجع طويل الفقرات أحياناً، وإلى إيثار الازدواج على السجع أحياناً أخرى ، وقد تحدث المقري عن أسلوب النفاضة في قوله: « وصف ابن الخطيب فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القراب »(٢)

ويتفاوت أسلوبه فيها بين الوصف السردي، وتصوير الشخصيات، ولكنه في الحالتين مغرب بهدف الابتكار والتفرد، ويمكن التعرف على هذه الملامح من خلال عرض بعض النماذج.

ذكرتُ أن الغالب على فصول الرحلة هو الأسلوب المرسل السهل الذي تشيع فيه السلاسة مما يضمن لهذه الرحلة أن تكون نسيج وحدها، فلسان الدين حين يصف وعورة الدروب التي سلكها في طريقه إلى قبر السلطان أبي الحسن المريني يقول : « فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذر، ولا يسلكه مع الحلم الطيف،

(١) الأدب الأندلسي التطور والتجديد : د. محمد عبد المنعم خفاجي،، دار الجيل بيروت، ط. ١ ، ١٤١٢هـ. ١٩٩٢ / ٦٤٠.
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٦/٢١١.

وتجاوزنا مهاوي مدت فيه أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة فتقطع عمن وراءها الآمال....» (١)

فالواضح أن السجع قد اختفي جملة من هذه القطعة التي جاءت في صورة فقرات مختلفة الوقفات، ومن المعروف أن تنويع القافية في النثر يريح السمع ويهدئ الخاطر.

وينبغي أن أشير إلى أن هذا الملمح الأسلوبي قد تمثّل بوضوح في القطع الوصفية للأماكن والمشاهد والآثار وما أطولها وأكثرها في النفاضة بحيث تمثل الأسلوب الغالب عليها، فحين يصور ابن الخطيب فعل الزمن ليبث في النفوس أمراً غفل عنه الكثيرون _ ربما أراد به الكاتب نفسه_ فيصف ما آلت إليه دار المهدي ومدرسته بحيث أصبحت من « الخمول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمباني الدَّبْر، وقرى النمل، وأعشاش الخشاش من الطير....» (٢)

فالكاتب قد نوع في سجعه، وبدل في جرسه فخرج عن المعهود من ثقل السجع وتكلف فواصل الفقرات.

وعلى الرغم من شيوع الأسلوب المرسل في النفاضة إلا أننا لم نعدم الكثير من الفقرات المسجوعة تتراوح بين أسجاع طويلة يتلافى طولها مع انتظار الأذن لجرس الروي المتكرر، وبين عبارات قصيرة متوازنة يقترن فيها السجع والتوازن.

ويتمثل النوع الأول في القطعة التي صوَّرت لنا جمال الجلسة المهيئة لاستراحة السلطان فإذا بها وقد « أظلتها الأشجار، تجري تحتها عين خرارة كأعظم

(١) نفاضة الجراب :٣/١.
(٢) السابق : ٣/١.

الأنهار، فوق حصي كدر النحور، القريبة العهد بلجج البحور، أو كثنايا الحور »[1]

فهذه القطعة وإن كانت مبنية على السجع إلا أنها قد اختيرت فيها الألفاظ، وامتلأت بالتصوير، فالحصي الذي يجري فوقه ماء المكان دُرّ يزين به النحور، فيبدو أبيض من ثنايا الحسناوات.

أما السجع قصير الفقرات فقد ارتضاه ابن الخطيب في بعض الأحيان، ولا ينبغي لنا أن نلوم الكاتب على ذلك الأسلوب المصنوع المسجوع الذي وَشَّا به رحلته من حينٍ لآخر؛ لأنه في هذا النمط من الكتابة يتوافق مع طبيعة العصرالذي أصبح السجع فيه أشبه بقانون عام لا يُقبل من أحدٍ الخروج عليه وهو قانون يتمثل في مدرسة القاضي الفاضل « وهي مدرسة موغلة في صناعة النثر، وكان تأثر العالم الإسلامي بها من مشرقه إلى مغربه إلى أندلسه بادي الوضوح. [2]

(١) نفاضة الجراب :٣/١.
(٢) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه / ٦٢٠.

وهناك ملامح أسلوبية عامة أخذت على نثر ابن الخطيب : [١] منها :

١. أسلوب الإطناب والترادف إلى حد الملل، فكثيراً ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجمله كثيرة، فكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإحاطة والإطناب.

٢. التأنق في ذكر التحميدات والدعاءات، وكثرة الألقاب التي يخلعها على المرسل إليه ، فإلي أي حد كان مثول هذه الملامح في رحلة النفاضة ؟

لم يشذ أسلوب النفاضة عن كتابات ابن الخطيب من حيث مثول هذه الملامح التي تلونت بها النفاضة من حين لآخر ولعلنا ندرك ذلك في الرسالة التي أرسلها ابن الخطيب إلى السلطان المريني يهنيه بفتح تلمسان، وقد أدى فيها الغرض وزيادة، فيلاحظ فيها كثرة الدعاء، والإفراط بالثناء، فتجري على نظيرتها من الرسائل الشخصية التي شاع فيها التنميق منذ أواخر القرن الرابع الهجري، يقول ابن الخطيب : « مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدرة أولي الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء الأبحار، أبقاكم الله لا تقف إيا لتكم عند حد، ولا تحصي فتوحات الله عليكم بعد..... »[٢]

وكما هو واضح من النموذج أن الكاتب قد جمع فيه بين التوازن والتسجيع، كما نلمس فيه و عي الكاتب بتصريف الكلمة ليستخرج منها صيغاً، أدخل في الحفاظ على التوازن من غيرها فيعدل عن جمع الكثرة في لفظتي

(١) ينظر: الأدب الأندلسي التطور والتجديد : ٦٤٠، والأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ٥٧٩.
(٢) نفاضة الجراب: ٥٣/١.

« العصر . البحر » إلى جمع القلة ؛ حرصاً على إحداث التوازن بين نهايات الجمل وهكذا كانت تطول المقدمة لبضعة أسطر بما فيها من ثناء ودعاء قبل البدء في مقصود الكاتب.

وبمطالعة العديد من نماذج الكتابة في عصر ابن الخطيب وجدتُ جملة من الألقاب التي تخلع على المرسل إليه والتي يختلف عددها بحسب رتبة هذا الشخص، وقد اقتفي الكاتب في هذه الرحلة أثر سابقيه ولم يشذ عن معاصريه في تقديمه لرسائله بمثل هذه الألقاب « الأجل، الأعز، الأسني، الأرفع، المعظم، الأخلص، الأكمل.....».

وبعد سرد هذه الأوصاف متراصة يعود إلى التقريظ المنغم بالسجع فيقول : «سيدي الأعظم، وملاذي الأعصم، وعروة عزي الوثقى التي لا تفصم، أبقاك الله بقاء آثارك، تأمر الدهر فيأتمر، ويلبي بثنائك الطائف والمعتمر، بأي لسان أثني على فواضلك وهن أمهات المنن.....»

وهذا يؤكد أن ظاهرة الإطناب وترادف الجمل، والمهارة في التعبير عنها بألفاظ عدة وصيغ مختلفة أمر لا مجال للشك في وجوده في رحلة النفاضة التي تتفق في هذا الأمر . إلى حد كبير . مع غيرها من مؤلفات ابن الخطيب.

ـ وهل يعني ما سبق أن كل ألوان السجع التي جاءت في النفاضة مقبولة مستساغة بحيث تخلو من عبارات يشيع فيها روح التكلف أو التعسف ؟

في الحقيقة لم تخل هذه الرسالة من سجعات متكلفة، ولكنها غير متوالية، بل نراها في ثنايا الكلام المقبول، مما يقلل درجة الإحساس بثقلها وتكلفها ومنها عبارات :

« فلم تتعلق نفسي بذخيرة، ولا عهد جيرة خيرة ».

و « والله يحقق السول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول ».

و « جودك أعطي وأمطي، وجاهك فرش وغطي ».

فلا تخلو هذه العبارات من وقع يصدم السمع ويؤذي الأذن إذا جاء بهذه الصورة التي قد تفسد المعني وتذهب ببهاء فحواه.

*** عنصر الحقيقة والخيال في الرحلة :**

من الضروري في تحليل الرحلة توضيح عنصر الصدق فيها، وإلى أي درجة كان دور الخيال؟ فربما تكون الحقيقة هامشية في الرحلة، ويؤدي الخيال الدور الأهم فيها.

من الواضح أن لسان الدين لم يكن يشغله في منفاه اتصاله المباشر بالسلطان عما سواه، فيستأذن فور وصوله إلى بلاد المغرب سلطانها في التجول في مختلف أقطارها متنحياً في ذلك عن قصر سلطان الأندلس وخدمته التي أوكلها إلى ابنه عبد الله، وهذا يؤكد أن جُل ما كان يشغل الكاتب هي المعالم الحضارية، والأماكن التاريخية التي تمني رؤيتها، ووصف معالمها، وما تتصف به، وفيم تتشابه، وإجراء الحديث مع من يلقاهم من علماء وفضلاء تلك البلدان، مع اختلاف طبقاتهن ورتبهن الاجتماعية والاقتصادية، وقد سجل ابن الخطيب كل هذا في رحلته معتمداً في المقام الأول على عنصر الصدق، ولا أدل على ذلك من أن الكاتب قد سجلها بنفسه، وفي حينه فلم يملها أو يروها عنه أحد.

ولكن هل يعني ذلك اختفاء عنصر الخيال من الرسالة جملة وتفصيلاً ؟

في الحقيقة أن عنصر الخيال عن طريق استعمال وسائل التعبير الفنى والأساليب التصويرية من تشبيهات واستعارات وكتابة .. ألخ .. في هذه الرسالة قد أعمله الكاتب في تزيين الواقع دون تغييره، فيوشي كلامه بالغريب أحياناً، والفاتن أحياناً أخري، فنراه حين يقدم كل العرفان بالجميل لسلطان المغرب لما أولاه به من الحفاوة والتكريم يعلل ذلك قائلاً : ولم لا « ورعيُك استخرج من الركيّة،[١]وسمع على البعد صوت الشكيَّة، فإن ذوت أغصان الصانع بلفح جحود، أو أصبحت الأيادي البيض من الغمط في لحود، فأغصان صنائعك قبلي قد زهت بحبِّها وأبِّها، وحَّيتها نواسم القبول من مهبها، وأياديك لديَّ، أحياء عند ربها.....» [٢]

فنحن أمام قطعة اختيرت فيها الألفاظ، وتناغمت الفواصل فغرقت الآذان بل الأفهام بما ساق الكاتب فيها من أطياف وخيالات رائعة قامت على تصوير سعة جود الممدوح الذي شمل بكرمه شكوى المكلوم في وقت عجز عن القيام بذلك من سواه، فيظهر الجود والكرم وكأنه إنسان قوي استخرج الماء على صعوبته فأنقذ الظمأى في حين تخلي الآخرون عنهم، ثم تأتي الاستعارة لتصوير هذا المعروف بشجرة نضرة مورقة مثمرة استظل الكاتب بظلها وأكل من ثمرها، ولكنه عجز عن مقابلة المعروف بشكره، ويلعب الخيال دوره حين يرسم صورة هذا التقصير وكأنه رياح محرقة قد تهب على تلك الشجرة فتصيبها بالذبول، ولكن نراه يستدرك حين يقرر أنَّ حَر التقصير لا يصيب الشجرة بمكروه، ولا يقلل من قدر هذا المعروف،

(١) الركيّة : الجب الذي لم يطو، فإذا طويت فهي بئر : الزاهرفي غريب ألفاظ الشافعي / الأزهري، الناشر : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت ت.محمد جبر الألفي، ط١، ١٣٩٩هـ / ٣٨٩/١.
(٢) نفاضة الجراب : ٥٧/١.

فتاريخ تلك الشجرة المورق المثمر قد شهد بعموم نفعه، وسعة أفقه الكثيرون، حين أكلوا من حبها، ونعموا بثمرها، فكافأتها النواسم الطيبة فحيتها وأجلتها، أما الكاتب فهو يوكل العرفان بتلك الآيادى البيض لله تعالى.

ولا شك في أن الكاتب آثر أقوى وسائل التعبير حين جاءت عباراته على طريق التصوير ؛ فجسد المعني فمكّن الحواس من التعامل معها عن طريق المعانقة بين أجزاء الصورة مما أدي إلى اليقظة الذهنية لمحاولة الإدراك والتتبع للمعاني المرادة.

وبهذا أدى الخيال دوره في تجسيد المعني بعد أن كان مجرد فكر يطوف بالذهن، قد يتعذر إدراكه أو لا يقوي على التأثير إذا وقف المعني عند حد التعبير العادي.

وقد يكمن دور الخيال في تزيين المشهد الحقيقي وتوضيح أدق تفاصيله، وتتبع جزئياته، فينتج لنا صورة كلية مكتملة الأركان، يمكن تلمس نبض الحياة بما يشيع فيها من حركة، ولون وصوت، ويتمثل ذلك في كثير من القطع التي وصف فيها الكاتب معالم الديار والمساجد والشوارع، والبساتين وغيرها مما رآه في بلاد المغرب، فنراه حين انصرف من مدينة أغمات، وانتهي من زيارة قبور الصالحين يبدع في رسم الطريق الذي سلكه والذي بدت فيه أدواح الزيتون وأغصان الأشجار . لامتدادها وكثرتها . كأناس ملازمين لخطوات السائرين، وقد شاركتها في ذلك جريات الأنهار، التي تناثرت على ضفافها بقايا الديار، وفي هذا الطريق تنعم الأذن بعنصر الصوت من هديل الحمام الملتف فوق الأغصان ويأسف الكاتب حين يري أن هذا المكان الغني بعناصر الطبيعة الخلابة فقير من العنصر البشري، فقد اقتحمه واستولت عليه أيدي الخوف، فسكنت البوم ربوعه بعد أن خلت

طرقه من السائرين يقول ابن الخطيب : « وماشينا أدواح الزيتون والأشجار تساوقها جرَّيات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار، تتجاوب أصوات الحمام المطوق فوق غصونه، وقد اقتطعت ذلك الخباب الخصب أيدي الوحشة، وأخفيت من حلل غابه السابلة وسكن ربوعه الآهلة البوم ».[1]

ومن النماذج السابقة وغيرها يمكن أن نقرر ماشاع عن ابن الخطيب من ارتكازه على التصوير والتشخيص وما عرف به من الولوع بالمجاز والبديع ، وما ذلك إلا لأنه نبغ في القرن الثامن الذي أصبحت الأناقة الانشائية فيه لا تزال في أوجها ، فإيثار التعبير بالصورة، والتنويع بين ألوان البديع مظهر عام أخذت كل كتابات ابن الخطيب منه بأوفر نصيب ، ومن ثم لا عجب أن تحظى النفاضة به في كل فصولها، فنراه حين تذكر ما كان من جهاد ابن الأحمر وما قام به من غزو نصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة منها مدينة" جيان" يقول :" وهذه المدينة هي الولود ، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود وكرسي الملك ومجنبته الوسطى من الممالك..غاب الأسود،وجحر الحيات السود،..ولما أكثبنا جوارها وكدنا نلتمع نهارها تحركنا إليها ، ووشاح الأفق المرقوم بزهر النجوم قد دار دائره ،والليل من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غدائره ، ولما فشا سر الصباح واهتزت أعطاف الريات بتحيات مبشرات الرياح أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس ، والفحول على العرائس.ودفعوا من أصحر إليهم من الفرسان ، وسبق إلى حومة الميدان حتى أجحروهم في البلد ، وسلبوهم لباس الجلد ،في

(١) نفاضة الجراب: ١ / ٦. السابلة : الطريق المسلوك والمارون عليه، ينظر: المعجم الوسيط، ٤١٥/١.

موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت الهام فيه غماما، وطارت كأسراب الحَمام تُهْدي حِماما ، وأضحت القنا قصدا، بعد أن كانت شهاباً رصدا..."

والقطعة كما هو واضح زاخرة بالجناسات والتصاوير ، فجيان أم ولود ، جنة لأهلها ، مهلكة لأعدائها ،عرين الأسود، ومخبأ الحيات السود، وقد دنوا منها ووشاح الأفق المزين بالنجوم يوشك أن يغيب ، ويالها من رهبة جعلت الليل يرتجف خوف النهار حتي كاد أن يشيب ، ولم يلبث الصباح حتى ذاع صيته وسط الرياح المبشرات بالظفر على الأعداء ، وقد انقضوا عليهم كالأسود الكواسر ، فأدخلوهم في جحورهم فراراً من الموت بعد أن أظلتهم غمامة السهام التي طارت بشكل مكثف منظم تحمل الموت للأعداء، وقد فقدوا قوتهم ، وتعرت جبهتهم، وتقطعت رماحهم التي كانت فيما مضى لهيباً يحرق من تصدى لهم.

وهكذا يؤثر ابن الخطيب ابراز المعاني في صورة محسَّة تنطق بما خلفها من أفكار، فنراه يصور الخراب بطائر شؤم قد حلق بالمدينة وحط رحله فيها فيقول: " ورفرف على المدينة جناح البوار " ثم تأتي الكناية لتعكس فداحة ما أوقعوه بالأعداء ، مستلهماً صورته من القرآن الكريم فيقول : "وأرسلنا رياح الغارات لا تذر من شيئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم "

ولسان الدين ابن الخطيب يمتلك ثروة لغوية كبيرة انعكس عليها حفظ الكاتب للقرآن الكريم وكذلك سعة اطلاعه وتنوع ثقافته، وارتباطه بأدب وأدباء المشرق، ومن ثم كان معجمه الشعري ثمرة هذه العوامل مجتمعة، فكثيراً ما يقتبس من القرآن ما يجلي فكرته، أو يؤكد معناه، فنراه حين صوَّر فتك سلطان الأندلس المتغلب ببعض أعوانه وأنصاره حين داخله الريب منهم يقول : « فلا بالدنيا استمسكوا ولا بالزمام

تمسكوا، ولا بحبل الله اعتلقوا، «ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين». (١)

وكذلك نراه حين سئل عن والي مكناسة يصفه بقوله : « صاحب هدي وسمت طريقةٍ غير ذات عوج ولا أمت ». (٢)

وبعد أن تحقق لابن الخطيب مأموله في الوصول لرباط شالة وحط رحله بجوار الصالحين فيها أحس بأنه ظفر بما تمني يقول : « فأنا الآن والحمد لله قد حططت بمثوى الولاية رحلي، وعثرت بأزهار أسرار الأبرار نحلي، وأخذت من الدهر ذحلى « فيا ليت قومي يعلمون بما غفر ربي وجعلني من المكرمين». (٣)

أما ارتباط ابن الخطيب بأدب المشارقة فقد برز في صور متعددة حين نراه يستلهم أعلام الأدب المشرقي ويستحضرها بل ويوظفها في أداء معناه فتردد أسماء : امرئ القيس ، حاتم الطائي ، قس بن ساعدة الإيادي، بشار بن برد، . بديع الزمان، المتنبي......وغيرهم ونراه يضمن أشعاره أشعاراً من شعر السابقين مؤكداً على علاقة التأثير والتأثر بين المشرق والمغرب.

فابن الخطيب في بلاد المغرب طريد الوطن، معذب القلب لهذا النفي فنراه يتعلق بالله لكشف محنه، وإجلاء همه يقول : (٤)

---

(١) فيها اقتباس من قوله تعالى : ﮋ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﮊ [التوبة: آية ٤٩].
(٢) مأخوذة من قوله تعالى : ﮋ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮊ [طه: ١٠٧].
(٣) اقتباس من قوله تعالى : ﮋ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ □ □ □ □ □ □ ﮊ [يس: ٢٦ – ٢٧].
(٤) النفاضة: ١/ ٥٧.

برئـــتُ لله مـــن حـــولي ومـــن حيلـــي   إن نام عـــني ولي فهـــو خـــير ولي

أصـــبحتُ مـــا لي مـــن عطـــف أؤملـــه   مـــن غـــيره في مهمـــات ولا بـــدلِ

مـــا كنـــتُ أحســـب أن أُرمـــي بقاصـــية   للهجـــر أقطـــع فيهـــا جانـــب الملـــل

ألممـــت بالعتـــب لم أحـــذر مواقعـــه   أنا الغريـق فمـا خـوفي مـن البلـلِ (١)

ولســـتُ أيأس مـــن وَعْـــدٍ وُعِـــدتُ بـــه   وإنمـا خلـق الإنسـان مـن عجـل(٢)

وكذلك ينصح ابن الخطيب سلطانه بعدم الركون إلى الدنيا ؛ لأنها إلى زوال فيقول : « الدنيا دار غرور والآخرة خير لمن اتقي، وما الناس إلا هالك وابن هالك » ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة »(٣)

وفي الحقيقة نحن أمام معجم لغوي ثَرٍّ تنثال الألفاظ فيه بيسر وسهولة، مما ينفي زعم البعض بأن وراء الصنعة البديعية استيلاء العجمة على الآلسنة، حتى يعجز الكتاب عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة، وأقول : أي عجمة

(١) الشطر الثاني من البيت مأخوذ من قول المتنبي :

والهجـــر أقتـــل لي ممـــا أراقبـــه   أنا الغريـق فمـا خـوفي مـن البلـل

ديوان المتنبي: وضعه ،عبد الرحمن البرقوقي/ج٣، مجلد ،٢ / ط١ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢ ، ٢٠٠١ م.

(٢) مقتبس من قوله تعالى: ﴿ ﴾ [الإسراء:آية:١١].

(٣) « وما الناس إلا هالك ابن هالك » شطر بيت أبي نواس القائل فيه :

أرى كـل حـي هالكـاً و ابـن هالـك   وذا نسـب في الهـالكين عريـق

ديوان أبي نواس:ت.أحمد عبد المجيد الغزالي/ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

هذه التي ينطق صاحبها بالفصيح، وتجئ بالجزل الصحيح، وتتصرف في المفردات ومشتقاتها تصرف الخبير، ولا نري معها أثراً لعامي أو غريب ؟!

وأري أن ظاهرة الإطناب التي يراها البعض عيباً حين تكثر الألفاظ دون إضافة معني جديد . قد تكون مقصودة لذاتها، وتأكيد المعني فيها مراداً من قبل الكاتب، فلم تأتِ عبثاً وذلك حين تفيد الألفاظ معاني متقاربة تتكاثف لرسم صورة معينة، والتأكيد على هدف بذاته، وعندئذٍ يتضح الفارق بين هذه الألفاظ بالوقوف على المعني المعجمي لها، فابن الخطيب حين يقص لنا صورة الصراع الدامي بين السلطة المرينية وبين رؤوس الفتنة في المغرب يقول:« كانت المناجزة بين طائفة الاحتجاز والأفاحص بعد موافقات، خف بها عند المنحصرة وزان القوم ممن سواهم ،فخرجوا على تعبئة محكمة قد أسبغوا الدروع، وأكثفوا العدد، ونشروا الرايات والبنود، وهولوا بالطبول، والبوقات والدبادب والغيطات، واستغلظوا بالصراخ والعجيج والجلبات، تقدمت الجمع كراديس الغز الرماه.....». (١)

(١) نفاضة الجراب : ١٤/١.
. الأفاحص: جمع أفحوص وهو مجثم القطاة، وموضعها الذي تجثم فيه وتبيض، فتفحص عنه التراب أي تكشفه، وسمي الخارجين أفاحص كناية عما أصابهم من ذل وتعب وكأنهم قطاة، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير، ت. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية بيروت ١٢٩٩ . ١٩٧٩، ٧٩١/٣.
=
= ـ الدبادب : الكثير الصياح والجبلة، وهو شبه الطبل، ويقال من الأصوات ما يشجع مثل أصوات الدبادب والبوقات ولذلك اتخذت في الحروب،ينظر : المغرب في ترتيب المعرب / ناصر بن عبد السيد الخوارزمي، ١٨٣/٢، تهذيب اللغة : الأزهري ٤٤٠/٤.
ـ الغيطات : آلة طرب حادة الصدى يستعملها شمال المغرب بكثرة، واحدتها : غيطة، ويتولى النفخ فيها قوم فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها

فالكاتب يصور ضخامة الجيش المريني وما أحدثه من صياح وجلبة تنبئ عن ضخامته وسعة عدته فأتي بالمترادفات لتأكيد المعني وتوضيح الصورة، فكان الإتيان بها أمراً لابد منه.

ـ أما عن دور الشعر في هذه الرسالة فيلاحظ أن الكاتب قد استكثر منه سواء ما رافق سرده النثري في مختلف الأغراض، وعرض المشاهد والأوصاف، أو ما أثبته الكاتب في حنايا الرحلة بأغراض مستقلة، وقد تنوعت تلك الأشعار على نوعين :

أولهما : نماذج اصطبغت بصبغة العلماء والفقهاء فيعبر فيها الشاعر عن الحقيقة صريحة جافية، فيعلو صوت العقل والفكر، ويخفت دور الخيال وهذا النوع من الشعر يمثل الجانب الأكبر ومنه قول ابن الخطيب في التورية الطبية بالدواء المسمي بـ « دم الأخوين » بعدما سمع بقتل سلطان الأندلس الخائن (اسماعيل) وأخيه (قيس) : [1]

على شئ دون الحرب، فإنها تشجع الجبان، وتقوي جأش الخائف ينظر : الاستقصا لأخبار دول الأقصي : ١٦٥/٥، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٩٥ / ١٨.

ـ العجيج : صوت الرعد والحجيج والنساء والشاء، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير الصوت، ينظر: شرح نهج البلاغة : عبد الحميد عز الدين، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، ١٨٨/١٠.

ـ الجلبات : جمع الجيش وسوقه مشتق من الجلبة وهي الصياح ؛ لأن قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادي فيهم للنفير أو الهجوم، ينظر :التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ط ١، ١٤٠٢هـ . ٢٠٠٠م، ١٢٢/١٤.

.كراديس : قطع عظيمة من الخيل، لسان العرب، ١٣٥/٥.

(١) نفاضة الجراب/١/ ٩٠.

باسماعيـــــــل ثم أخيـــــــه قـــــــيس تأذن ليـــــــل همـــــــي بانـــــــبلاج

دم الأخـــــوين داوي جـــــرح قلـــــبي وعـــــالجني وحســـبك مـــن عـــلاجِ

ومنه تهنئته للشيخ أبي الحسن بن بطان[١] بعودة ابنه عبد الواحد بعد اغتراب ثقل حمله على والده : [٢]

يهنيـك مقـدم عبـد الواحـد ابنـك عـن مطـــلٍ بوعـــد مـــن الأيام مرقـــوب

كيوســـف كـــان في فعـــل الزمـــان بـــه وكنـــت في البـــث والشـــكوى كيعقـــوب

ثانيهما : أشعار عبَّر ابن الخطيب فيها عن نفسه ومشاعره فكانت بمثابة آهات حزينة وعبرات تصف آلامه وأنينه في بعده عن وطنه، وشده شوقه إليه ، يقول:

أيام قربـــك عنـــدي مـــا لهـــا ثمـــن لكنـــني صـــدني عـــن قربـــك الـــزمنُ

حططـــتُ بعـــدك يا أهلـــي ويا وطـــني رَحْـــل الغريـــب فـــلا أهـــل ولا وطـــنُ

ويحزن الشاعر لوفاة زوجته في دار الغربة وقد خلفت صغاراًَ لا حول لهم ولا قوة فرثاها بقصيدة زفرت آهاته وأنينه ومنها قوله : [٣]

قـــد كنـــتِ مـــا لي لمـــا اقتضـــي زمـــني ذهـــاب مـــا لي وكنـــت آمـــالي

---

(١) لم أقف على ترجمة له إلا من خلال ما جاء في النفاضة عندما سئل ابن الخطيب عنه فقال : كوكب سحر، وكريم قري ونحر، وأبهت وسحر ما شئت من ترتيب وتقدير، وخليق بالبر جدير.....، يكسب الأمل، ويثقل الناقة والجمل، عضه الدهر فما عضَّ من طباعه، واستأثر بماله ورباعه، وتركه فريسة بين سباعه، فما حطَّ من همته ولا قصَّر من باعه.....، النفاضة : ٤٣/١.

(٢) النفاضة.

(٣) النفاضة :

أمـــا وقـــد غـــاب في تـــراب ســـلا وجهـــك عـــني فلســـتُ بالســـالي

والله حـــزني لا كـــان بعـــد علـــى ذاك الشـــباب الجديـــد بالبـــالي

فـــانتظريني فالشـــوق يقلقـــني ويقتضـــي ســـرعتي واعجـــالي

ومهـــدي لي لـــديك مضـــطجعاً فعـــن قريـــب يكـــون ترحـــالي

وثمة ظاهرة موسيقية تجلت في أغلب النماذج الشعرية التي ساقها ابن الخطيب في كتاب النفاضة بدافع الحرص على إحداث التوافق النغمي بين أشطار الأبيات ألا وهي ظاهرة « التصريع » ولاشك أن الفحول والمجيدين من الشعراء والقدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعد لون عنه، وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول، ويكون ذلك من اقتدار الشاعر وسعة بحره ». (١)

(١) نقد الشعر : قدامه بن جعفر، ت.د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية/٨٦.

الخاتمة

عرجتُ في صفحات البحث على مفخرة من مفاخر الأندلس، حسن أداء وروعة بيان، على كاتبها الأول، وأديبها الأوحد في القرن الثامن الهجري بما خلف من تراث زاخر يشمل المنظوم والمنثور، وإن كان شعره لا يبلغ منزلة نثره، فقد كان كاتباً أبلغ منه شاعراً.

وقد كان ذلك من خلال إحدى رحلاته التي كانت وجهته فيها بلاد المغرب وقد طوَّف بها وخالط أهلها، ونقل لنا صورة حية عن طبيعة الحياة فيها، ولم يكن هذا النقل تسجيلاً جغرافياً، أو سرداً تاريخياً بعيداً عن دائرة الأدب، بل مثلت تلك الرحلة قطعاً أدبيةً فنية أسفرت لنا عن ملامح اشتركت فيها مع غيرها من كتابات لسان الدين ابن الخطيب، وملامح أخري جعلتها نموذجاً مختلفاً عن غيرها.

ويمكن إجمال ما أثمرته هذه الدراسة فيما يلي :

أولاً: تكمن قيمة هذه الرحلة في قدرتها على النقل الواقعي والتصوير التحليلي المتتبع لأدق المشاهد، وإدخال لمحات قصصية خاطفة في حنايا فصول الرسالة.

ثانياً: تمتاز النفاضة بالأسلوب الرصين المشرق، واللفظ الجزل المختار، وبالرغم من أن معظمها يجري على قاعدة السجع إلا أنها في الأغلب خالية من روح التكلف الذي يجني أحياناً على الأسلوب والمعني، فالكاتب له براعة خاصة في تخير الألفاظ وإبراز المعاني بالترادف والإطناب لا يجاريه فيها الكثيرون من أكابر الكتاب.

ثالثاً: هذه الرحلة بمثابة قيمة وثائقية تجسد علاقة الأندلس بالمغرب بما بينهما من مهادنات وصراعات.

رابعـــاً: تجلي الأسلوب المرسل واضحاً في هذه الرحلة، وإيثار الازدواج على السجع، بحيث اعتمد الكاتب فيها على التنويع في سرد المتعاطفات والإكثار من الشعر، والتلويح بالإشارة إلى جملة كبيرة من الأشخاص والأحداث.

وقد جاءت صفحات هذا البحث مقسمة على النحو التالي :

مقدمة : كشفتُ فيها عن قيمة التراث الأندلسي وأحقيته بأن يأخذ حظه من الدراسة، والتنويه بمكانته التي لا تقل بحال عن تراث أهل المشرق، ثم عرجتُ إلى نبذة مختصرة عن القيمة المرجوة من أدب الرحلات.

المبحث الأول : إطلالة على حياة ابن الخطيب وآثاره الأدبية.

المبحث الثاني : كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب عرض وتوصيف : وقد قمتُ فيه بالتأريخ الزماني والمكاني للرحلة مروراً بترتيب الأحداث الواردة فيها.

المبحث الثالث: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب دراسة فنية : وقد أبرزتُ من خلاله أهم الملامح الأسلوبية في الرحلة، وإلى أي حد هو مشترك مع غيره من نتاج الكاتب.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب /المقري، ت.د/حسان عباس، دار صادر بيروت.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام /ت. د. إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ط٢ ،١٣٩٩ ، ١٩٩٧.
(٣) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام/ لسان الين ابن الخطيب /ت. ليفي بروفنسال / بيروت / ١٩٥٦.
(٤) الرحلات / د. شوقي ضيف / دار المعارف . القاهرة، ط٤ / ١٩٨٧.
(٥) الأعلام للزركلي / دار العلوم للملايين.
(٦) أرشيف ملتقي أهل الحديث.
(٧) تاريخ ابن خلدون /ت.د إحسان عباس . دار صادر بيروت.
(٨) الإحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين ابن الخطيب/ت. محمد عبد الله عنان/دار المعارف ، مصر.
(٩) أوصاف الناس في التوايخ والصلات تليها الزواجر والعظات / لسان الدين ابن الخطيب /ت، محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي ١٩٧٧م.
(١٠) هدية العارفين / إسماعيل البغدادي / دار الفكر بيروت ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م.
(١١) الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لسان الدين ابن الخطيب / ت.د. إحسان عباس / دار الثقافة بيروت لبنان ط١، ١٦٩٣.
(١٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:ابن حجر/ ط،مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٣٠ ، ١٩٣٢م.
(١٣) جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس / ابن القاضي/ ط فارس١٣٠٩.
(١٤) معجم المؤلفين / دار إحياء التراث العربي . بيروت.
(١٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب / الحنبلي / ت. عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط / دار ابن كثير / دمشق.

(١٦) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات /د. شوقي ضيف / دار المعارف القاهرة. ط٣.
(١٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى / أبو العباس الناصري/ ت. جعفر الناصري، محمد الناصري / دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨، ١٩٩٧.
(١٨) صبح الأعشي في صناعة الانشا / القلقشندي / ت. يوسف على الطويل دار الفكر دمشق/ ط١ ١٩٨٧.
(١٩) اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية/ ابن الخطيب/ المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧هـ .
. نقد الشعر/ قدامه بن جعفر / ت.د/محمد عبد المنعم خفاجي / دار الكتب العلمية.
(٢٠) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب / لسان الدين ابن الخطيب / ت. أحمد العبادي/ دارالكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨.
(٢١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان / نظام الدين النيسابوري / ت.الشيخ زكريا عميران دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١، ١٤١٦ . ١٩٩٦.
(٢٢) القاموس المحيط للفيروزبادي/ مؤة الرسالة ، بيروت ط١/ ١٤٠٦.
(٢٣) العين / الخليل بن أحمد الفراهيدي / دار الهلال، ت.د/ مهدي الخزومي، د. إبراهيم السامرائي.
(٢٤) تاج العروس من جواهر القاموس / المرتضي الزبيدي / ت.مجموعة من المحققين / دار الهداية.
(٢٥) المعتمد في الأدوية للتركماني.
(٢٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير / أحمد بن محمد الفيومى / المكتبة العلمية.
(٢٧) المعجم الوسيط. أحمد حسن الزيات وزملاؤه، ت. مجمع اللغة العربية . نشر دار الدعوة.
(٢٨) إكمال الأعلام / للجياني / ت. سعد بن حمدان الغامدي / جامعة أم القري / ١٤٠٤.
(٢٩) مقاييس اللغة / أبي الحسن أحمد بن فارس / ت. عبد السلام هارون / الناشر اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٣ . ٢٠٠٢.

(٣٠) جامع الأصول في أحاديث الرسول / مجد الدين ابن الأثير / ت. عبد القادر الأرنؤوط . مكتبة الحلواني . دار البيان.
(٣١) تهذيب اللغة للأزهري/ت. محمد علي النجار/مطابع سجل العرب.
(٣٢) تاج اللغة وصحاح العربية / الجوهري / ت. أحمد عبد الغفار عطا / دار العلم للملايين . بيروت . ط٤، ١٤٠٧ . ١٩٨٧.
(٣٣) المحيط في اللغة / الصاحب بن عباد/ت.الشيخ محمد آل ياسين/ط١، بيروت ١٤١٤، ١٩٩٤ م.
(٣٤) لسان العرب / ابن منظور الافريقي / دار صادر بيروت.
(٣٥) المحكم والمحيط الأعظم / أبو الحسن بن سيدة المرسي / ت.عبد الحميد هنداوي / دار الكتب العلمية . بيروت/ ٢٠٠٠.
(٣٦) . التحرير والتنوير / محمد الطاهر التونسي / مؤسسة التاريخ العربي / بيروت . لبنان . ط١ . ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م.
(٣٧) معجم البلدان/ ياقوت الحموي / دار الفكر بيروت.
(٣٨) عجائب البلدان / سراج الدين بن الوردي.
(٣٩) وفيات الأعيان في أبناء الزمان / ابن خلكان / ت. محمد محيي الدين عبد الحميد / ط. النهضة . القاهرة.
(٤٠) أنباء الغمر بأنباء العمر / للحافظ ابن حجر / دار الكتب العلمية . بيروت.
(٤١) الوافي بالوفيات / صلاح الدين الصفدي/ ت.احمد الأرناؤوط ،وتركي مصطفى/ دار احياء التراث ، بيروت، ١٤٢٠، ٢٠٠٠ م.
(٤٢) مرآة الجفان وعبر اليقظان في معرفة حوادث الزمان / اليافعى.
(٤٣) ديوان بشار بن برد / شرح د. صلاح الدين الهواري / مكتبة الهلال ١٩٩٨.
(٤٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق / الادريس/ ط.ليدن /١٨٦٦.
(٤٥) الروض المعطار في خبر الأقطار / محمد بن عبد المنعم الحميري / ت. إحسان عباس / مؤسسة ناصر للثقافة / بيروت . ط٢ .١٩٨٠.
(٤٦) آثار البلاد وأخبار العباد / القزويني.
(٤٧) رفع الإصر عن قضاة مصر / ابن حجر العسقلاني.
(٤٨) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي / أنيس المقدس / ط٩ . دار العلم للملايين / ١٩٩٨.

(٤٩) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه / د. مصطفي الشعكة / دار العلم للملايين / ط٩ . ١٩٩٧.
(٥٠) الأدب الأندلسي التطور والتجديد / د. محمد عبد المنعم خفاجي / دار الجيل . بيروت ط١، ١٤١٢ . ١٩٩٢.
(٥١) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي / الأزهري / ت. محمد جبر الألفي / الناشر. وزارة الأوقاف ط١ . ١٣٩٩هـ.
(٥٢) ديوان أبي نواس/ت.أحمد عبد المجيد الغزالي/دار الكتلب العربي ، بيروت ، لبنان.
(٥٣) شرح ديوان المتنبي/وضعه عبد الرحمن البرقوقي/دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان المجلد ٢، ج٣،ط١ ،١٤٢٢، ٢٠٠١.
(٥٤) الصيب والجهام والماضي والكهام / لسان الدين ابن الخطيب / ت د.محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط ١، ١٩٧٣.
(٥٥) النهاية في غريب الحديث والأثر / ابن الأثير / ت. طاهر أحمد الزاوي / المكتبة العلمية . بيروت ١٢٩٩ . ١٩٧٩.
(٥٦) شرح نهج البلاغة / عبد الحميد عز الدين / ت. محمد أبو الفضل إبراهيم / دار إحياء الكتب العربية.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٠٢٩
المبحث الأول : إطلالة على حياة ابن الخطيب وآثاره الأدبية	١٠٣٤
المبحـــث الثـــاني : نفاضـــة الجـــراب في علالـــة الاغتراب « عرض وتوصيف ».....	١٠٤٥
المبحـــث الثالـــث : نفاضـــة الجـــراب في علالـــة الاغتراب « نقد وتحليل ».....	١٠٧١
النفاضة بين الرسالة والمقامة	١٠٧٢
أسلوب النفاضة.....	١٠٧٣
عنصر الحقيقة والخيال في الرحلة	١٠٨٠
الخاتمة	١٠٩١
فهرس المراجع.....	١٠٩٤
فهرس الموضوعات.....	١٠٩٨